الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة جيلالي اليابس –سيدي بلعباس–

كلية الآداب واللغات والفنون

قسم اللغة العربية وآدابها

النزعة الصوفية في أدب جبران خليل جبران

مقاربة تحليلية

رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه في الأدب العربي الحديث

إعداد الطالبة:

حقوق فاطمة

إشراف الدكتور:

قريش بن علي

أعضاء لجنة المناقشة

■ أ.د محمد مرتاض	رئيسا	جامعة تلمسان
■ د. بن علي قريش	مشرفا ومقررا	جامعة سيدي بلعباس
■ أ.د محمد زمري	عضوا مناقشا	جامعة تلمسان
■ د. أمينة طيبي	عضوا مناقشا	جامعة سيدي بلعباس
■ د. بوجمعة عمارة	عضوا مناقشا	جامعة سيدي بلعباس
■ د. سعيد عكاشة	عضوا مناقشا	جامعة سيدي بلعباس

السنة الجامعية: 1435– 1436 هـ/ 2014–2015م

مقدمـــــــــة:

لم تعد التجربة الصوفية حبيسة الزوايا ومجالس الذكر لا يهتم بها إلا سالكو هذا الطريق، بل صارت محط اهتمام الأدباء والنقاد، إذ امتد تأثيرها إلى الأدب فساهمت في تشكيله جماليا ومعرفيا، وبذلك ظهر الخطاب الصوفي ذو المعاني العميقة والصور البديعة.

وقد يقال أن الخطاب الصوفي ليس وليد العصر الحديث، وأنه وُجد منذ القدم وهذا صحيح، لكنه مع الأسف لم يلق الإهتمام الذي يليق به إلا في الوقت الراهن حين التفت إليه النقاد بالدراسة وعدوه مصدرا من مصادر اللغة الحية والأساليب الجديدة، ووظفه الأدباء في إبداعاتهم كنمط من أنماط التجديد.

ومن الأدباء الذين عرفوا بنزعاتهم الصوفية (جبران خليل جبران) أحد رواد الأدب المهجري، وعميد الرابطة القلمية، الرابطة التي حاربت التقليد ودعت إلى التجديد مع المحافظة على التراث، والتي كان لها دور كبير في تحرير الأدب العربي من قيود الماضي التي جعلته جامدا وخاليا من روح العصر.

اعتز جبران بجذوره الشرقية المفعمة بالروحانية وبقي محافظا عليها، يستلهمها في أدبه الذي طفح بروحانية جعلت العالم الغربي الغارق في المادة يلتفت إليه ويحتفي به، أما العالم العربي فرأى فيه أسلوبا جديدا لم يألفه، فناهظه بعضهم واستحسنه البعض الآخر، وفي ذلك يقول المنفلوطي: "إن رأيت شاعرا من الشعراء أو عالما من العلماء، أو نبيلا في قومه، أو داعيا في أمته، قد انقسم الناس في النظر إليه، وفي تقدير منزلته انقساما عظيما، فافتتن في حبه قوم حتى رفعوه إلى رتبة الملاك، ودان ببغضه الآخرون حتى

هبطوا به إلى منزلة الشيطان، فاعلم أنه رجل عظيم"[1]، وهذه الصفة ليست بالكبيرة على جبران لأنه صاحب الفضل الكبير في إخراج الأدب العربي من دائرته الضيقة إلى العالمية، فهو الذي عبّر عنه بلغة الغرب فكان أصيلا، وليس مثل بعض الأدباء الذين تأثروا بالحداثة الأوروبية وصاروا عبيدا لها إلى الحد الذي جعلهم ينفون وجود حضارة عربية، ويسعون إلى تحطيمها.

كثرت الدراسات حول جبران وتشعبت وتنوعت، وهذا دليل على عظمة أدبه، غير أنه خلال تفحص قائمة هذه الدراسات لم نجد كتابا اختص بدراسة النزعة الصوفية في أدبه باستثناء كتاب لـ (جان لوسيرف)بعنوان (النزعات الصوفية في أدب جبران خليل جبران)الذي أشار فيه إلى بعض ميولات جبران الصوفية إشارات خفيفة، ونتيجة لذلك حاول هذا البحث تسليط الضوء قدر الإمكان على نزعته الصوفية وتجلياتها في أدبه، فأي تصوف يظهر في أدب جبران المسيحي؟ وما تجلياته ومظاهره؟ وما خصائص صوفيته؟ وهل سلك جبران طريق المتصوفين؟

استقام هذا البحث في مدخل وثلاثة فصول، إذ عالج المدخل مفهوم مصطلح التصوف عند العرب والغرب ونشأته، وأنواعه وخصائصه والعلاقة التي تربطه بالأدب.

- أماالفصل الأول: فقد عُنون بالأصول الاجتماعية والمعرفية للفكر الصوفي في أدب جبران خليل جبران، عرضنا فيه بإيجاز أهم العوامل التي أسهمت في تكوين هذه النزعة من الأوضاع السياسية والاجتماعية للبنـان ،والبيئة الطبيعية لمسـقط رأسـه

[1]- ريموند قبعين، النزعة الروحية في أدب جبران ونعيمة، دار الفكر اللبناني، بيروت، د ط، د ت، ص15.

(بِشْري) والمحيط الخاص بعائلته، واستعداداته الذاتية التي أسهمت في ظهور ميوله الصوفية، كما ركزنا على تكوينه الثقافي.

- في حين تناول الفصل الثاني مظاهر النزعة الصوفية عند جبران من تقمص وحلول ووحدة أديان وحب وجمال.
- أما الفصل الثالث فركّز على خصائص أسلوب جبران في أدبه ذي الميول الصوفية وما انطوى عليه من تميز على مستوى اللغة والصور والرموز والإيقاع.

ثم جاءت الخاتمة متضمنة أهم النتائج التي توصل إليها هذا البحث على شكل إجابة مقترحة على الإشكاليات التي انطلقنا منها في هذه المقدمة .

واعتمد هذا البحث على المنهج التحليلي الذي تخلله بعض إجراءات المنهج الاجتماعي في تحديد الأبعاد الصوفية وسماتها الفنية بالتحليل والتمثيل.

كما ساعدتنا في إنجاز هذا البحث مجموعة من المصادر والمراجع نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:(المجموعة الكاملة) لمؤلفات جبران العربية والمعربة عن الإنجليزية التي مثلت المتن الذي انبنى عليه البحث ، وجبران خليل جبران في حياته العاصفة، وجبران في عصره وآثاره الأدبية والفنية لجميل جبر، و(شخصية جبران في أبعادها التكوينية والحياتية بجزأيه المكونات الأولية وتحولات المربع) لبولس طوق التي اختصت بدراسة حياة جبران بكل أطوارهاو(جبران الفيلسوف) لغسان خالد الذي سلّط الضوء على الجانب النفسي لشخصية جبران ، و(النزعة الروحية في أدب جبران ونعيمة) لريموند قبعين وكتاب (جبران أصالة وحداثة) لمها خير بك ناصر،وكتاب (بين نعيمة وجبران) لطنسي زكا الذي

عقد فيه مقارنة بين جبران و نعيمة و بيّن تحامل هذا الأخير عليه في مواضع كثيرة عند تأليفه لكتاب عن حياة جبران.

وأما الصعوبات التي واجهتنا فهي كثيرة و سنقتصر على ذكر أبرزهاو التي تتمثل في:

1- تشعب حقل التصوف وغموض مصطلحاته ودلالاته.

2- جدة الموضوع وكثرة المؤثرات والمصادر التي استقى منها جبران رؤيته الصوفية.

3- عدم وضوح نزعاته الصوفية وتداخلها بأبعاد أفلاطونية.

4- شساعة مؤلفاته وقلة الشواهد الدالة على نزعاته الصوفية، الأمر الذي استغرق منا وقتا وجهدا كبيرين في استنباطها مع حرصنا على عدم تكرارها قدر الإمكان.

ولست أدّعي أنني أحطت بهذا الموضوع إحاطة شاملة و إنما هو ومضات خفيفة وخطوات متواضعة علّها تشكل لبنة في صرح نتاج نقدي للأدب الصوفي لذا لا ندعي الكمال الذي اختص به الخالق ، ولا نشيد بهذه الدراسة لأن لكل شيئ إذا تم نقصان و فوق كل ذي علم عليم .

كما لا يفوتني في الأخير أن أقدم جزيل شكري وخالص امتناني للأستاذ المشرف "قريش بن علي" الذي ساعدني، ولم يبخل على هذه المذكرة المتواضعة منذ أن كانت فكرة إلى أن أصبحت بحثا، كما أشكر كل الذين قدموا لي يد العون بمصادر ثمينة أو بكلمة طيبة.

مدخـــــــــــل

شهد العالم نهضة علمية واسعة شملت مختلف الميادين نتج عنها تقدم عظيم، جعل المادة تسيطر على الإنسان بدرجة كبيرة جدا، حتى أصبح مثل الآلة يتحرك بدون روح ولا عواطف، فانغمس في الدنيا وملذاتها وابتعد عن الدين والأخلاق والروحانيات، ونتيجة لذلك ظهرت حركة دينية تدعو إلى "الإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والإنفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة"[1]، وتتوق إلى الخلاص، أي الإنعتاق من كل ما يقيد الإنسان ويكبله لينعم بالمعرفة العالية المتعالية، سميت هذه الحركة الدينية بالصوفية أو التصوف الذي هو ظاهرة دينية عالمية غير مقيدة بحدود الزمان والمكان واللغات والأجناس والأديان "فلا وطن لها ولا تاريخ ميلاد"[2].

ورغم أن الروح هي المحرك الأساسي للإنسان إلا أنه قديما لم يُعن بدراستها والكشف عن حقائقها وخباياها، وحتى هذه الحركة الدينية في بواكير نشأتها لم تلق المكانة التي تليق بها، بل قوبلت بالإضطهاد والقمع إذ قتل أشهر أعلامها وطرد البعض الآخر وأتلفت كتاباتهم وآثارهم بحجة عدم مسايرتها للأفكار والمفاهيم التقليدية السائدة ومساهمتها في نشر الفوضى والفتن.

لكن ما يلفت الانتباه اليوم ويستدعي التريث الاهتمام الكبير الذي يحظى به التصوف من قبل الدارسين والباحثين ولا سيما الجامعات الأجنبية، إذ يكفيك جولة واحدة في أشهر المكتبات لتتفاجأ بحجم المؤلفات الموضوعة فيه، وهذا يدل دلالة واضحة لا مجال للشك فيها على أن النص الصوفي

[1]- عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة العلامة ابن خلدون، دار الفكر، 2010 م، ص .462.

[2] -James William, The varieties of religions experience, New york= double day company Inc, 1978, P.370.

يشكل اليوم مادة ثريّة وخصبة للإبداعات والدراسات المعاصرة، الأمر الذي جعلنا نصطدم بكم هائل من الأسئلة بعضها كان يجول في خاطرنا قبل الدراسة، وبعضها الآخر تولّد نتيجة للقراءة والمناقشة. فما هو التصوف؟ وما حقيقة اشتقاقه؟ وكيف نشأ ولِم نشأ؟ وما موضوعه وغايته؟ وما علاقته بالأدب؟

1- اشتقاق مصطلح التصوف وتعريفه.

أ- اشتقاق المصطلح:

يرى الباحثون الأوروبيون أن جذر مصطلح Mysticism[1] مشتق من الكلمة اليونانية Meyein التي تعني الصمت والخرص وكم الأفواه، كما تعني تلقين مبادئ فن أو موضوع ما، وكانت الكلمة في أصلها اليوناني تستعمل كوصف للمراسيم والطقوس السرية الخاصة بالأديان الباطنية والتي كانت تفرض على المنخرطين فيها الالتزام بالصمت الدائم والسرية التامة حتى لا تتسرب معارفهم إلى غيرهم.

[1]- ينظر: سفيان زدادقة، الحقيقة والسراب قراءة في البعد الصوفي عند أدونيس مرجعا وممارسة، الدار العربية للعلوم ناشرون، لبنان، ط1، 1329هـ-2008م، ص. 28.

وقد انتقلت هذه النزعة (الصمت والسرية) إلى الجماعات الغنوصية* في مختلف الأديان[1]، فقد عرف عن بعض الفرق اليهودية كالأسينيين والغيورين** أنهم يفرضون على من ينظم إليهم أن يُقسم عهدا بعدم الإفشاء، والأمر نفسه نجده في المسيحية وبعض الفرق الباطنية في الإسلام كالإسماعيلية والقرامطة والجماعات الصوفية التي بالغت في التصوف واتجهت به اتجاها مخالفا لمبادئ الدين مثل القلندرية والبكتاشية.

ثم تغيّر مدلول المصطلح (Myticism) بتأثير الفلسفة الأفلاطونية المحدثة من الصمت والخرس وأصبح يشير إلى التأمل النظري[2]، وهذا المعنى عام جدا لأنه ليس خاصا بالمعرفة الصوفية الذوقية الكشفية وإنما قد يدل أيضا على المعرفة التأملية التي تقوم على العقل والإستدلال المنطقي ولهذا السبب استبعده الباحثون، وعليه فإن هذا المصطلح في مختلف اللغات والأديان ظل معناه مرتبطا بالصمت والخرس والكتمان، ففي البوذية والهندوسية والتاوية الصينية دلّ المصطلح على الصمت المطلق.

* – الغنوصية أو العارفية أو العرفانية أو العرفان كلمة يونانية الأصل تعني المعرفة، وهي تعبر عن تذوق مباشر للمعارف أو التوصل إلى المعارف العليا بنوع من الكشف والإلهام، تهدف إلى معرفة الله عن طريق الإستبطان والحدس لا عن طريق البحث العقلاني المنطقي "فالذوق الفردي هو وحده وسيلة المعرفة ومصدرها"، وفي التراث العربي الإسلامي تستخدم كلمة عرفان عند الصوفية لتدل على نوع أسمى من المعرفة يلقى في القلب على هيئة إلهام أو كشف، ويُعرّف العرفان على أنه العلم بأسرار الحقائق الدينية والخصائص الإلهية وبكل ما هو سرّي وخفي.

ارتبط ظهور الغنوصية بيهودي ظهر في القرن الأول الميلادي اسمه (سيمون الساحر) الذي ادّعى التنصر ونشر مبادئ الغنوصية التي صارت حركة فلسفية وتعاليم دينية متنافرة انتشرت في الشرق الأدنى القديم في القرنين الثاني والثالث بعد الميلاد، وقد عرفت تغييرات كبيرة لكنها ظلت محافظة على اعتقادها بأن المعرفة هي أقدس ما يملكه الإنسان وهي توجد على نحو فردي إنساني.

توصف الغنوصية بأنها مزيج غير أصيل من أفكار دينية مختلفة المنابع، وتعتمد بالدرجة الأولى على التوفيق بين مختلف العقائد فهي تجمع بين المسيحية واليونانية والفارسية واليهودية والفيثاغورية والأفلاطونية، وعموما هي حركة فكرية دينية تجمع بين الدين والفلسفة وبين الشرق والغرب. (ينظر: ميجان الرويلي–سعد البازغي، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط4، 2005 م، ص ص. 196–198. وعبد الرحمن الوكيل، هذه هي الصوفية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط4، 1984م، ص. 21).

[1]– ينظر: عبد المجيد الشرفي، الفكر الإسلامي في الرد على النصارى إلى نهاية القرن الرابع/ العاشر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، دط، 1986م، ص. 28.

** الأسينيون: فرقة يهودية تهتم بالإنتاج الأدبي، تضم نساكا وكهنة يمارسون حياة الرهبنة الجماعية ويميلون إلى الطهارة الشرعية، ويحرصون على مشاعر الأخوّة، كانوا يقيمون في المغارات والكهوف القريبة ويؤمنون بقرب حلول عالم جديد مثالي. أما الغيورين فهي حركة دينية أنشأها يهودا الجليلي سنة 6م، تسببت في حركات العصيان والتمرّد التي عرفتها فلسطين وانتهت بتهديم الهيكل وتشتيت اليهود، فكانوا لا يؤدون الضرائب للحكام الرومان ويقتلون كل من تسوّل له نفسه المجاهرة بعدم احترام أوامر الشريعة.(ينظر: المرجع نفسه، ص ص. 26–27).

[2] – voir : Iliada Mircea, Encyclopedia of religion, Mac Millan Publishing co, vol 2, 1987, P.10.

وقد ربطت جماعة أخرى من مؤرخي التصوف مصطلح Mysticism بمصطلح Mustikos الذي يُقصد به المعاني الخفية المستورة وراء ظواهر النصوص الكتابية، فهم يرون أن كل نص لديه معنى ظاهر يتراءى لكل قارئ له ومعنى خفي غامض مبهم يجب على الصوفي أن ينقب عنه، وهو الحقيقة التي ينبغي أن يجعلها غاية وهدفا له وليس ظواهر الأمور، فهو مكلف بالبحث عن البواطن أو المعرفة الإلهية التي لا يمكن أن يصل إليها غيره[1]، ومعرفته هذه هي معرفة تقوم على تعميق الحياة الروحية بمجاهدة شهوات النفس وقمعها قصد التطهير والتخلص من أدران الدنيا وشوائبها ليتصل بالعالم الإلهي من جديد ويحصل على المعرفة أو الصيغة الغنوصية.

أما في اللغة العربية فقد اختلف الكتّاب والمؤرخون وحتى الصوفية أنفسهم في نشأة مصطلح التصوف وجذره اللغوي، وهل كلمة التصوف كلمة عربية أم معرّبة؟ وإذا كانت معرّبة فما أصلها الأجنبي؟، فذات مرّة سُئل الشبلي: "لِم سميتم بهذا الاسم؟ فقال: هذا الاسم الذي أطلق عليهم اختلف في أصله وفي مصدر اشتقاقه"[2]، حيث يطلق اسم الصوفية على الأفراد أكثر مما يطلق على الجمع، لذا يشهد هذا اللفظ اشتقاقات عدّة[3] منها ما يتوافق مع القواعد الصرفية ومنها ما يخالفها ولا يتفق معها، وقد "رشحت ألفاظ عديدة لتكون أصلا لكلمة صوفي منها: الصفاء، الصفوة، الصوفانة، سوفيا، صوفة

[1]- ينظر: شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الثاني، دار المعارف، مصر، ط2، د ت، ص.106.

[2]- عبد الحليم محمود، أبحاث في التصوف، دار الكتاب اللبناني، لبنان، ط1، 1979م، ص.55.

[3]- ينظر: جان شوفلي، التصوف والمتصوفة، ترجمة عبد القادر قنيني، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ط1، 1999م، ص.07.

القفا، الصوفة المرمية، بنو صوفة، الصوف"[1]، وهناك من يضيف ألفاظا أخرى كالصف وأهل الصفة، وثيوصوفي وغيرها، وسنتطرق إلى أشهرها:

*** أهل الصفة:**

الصفة هي عبارة عن ساحة أو فناء بجوار مسجد الرسول صلى الله علية وسلّم بالمدينة المنوّرة، سُقفت بسعف النخيل لتكون مأوى لمجموعة من المهاجرين الذين لم يجدوا مسكنا لهم يأويهم ويقيهم من حرّ الشمس وبرد الشتاء، وكان من بينهم كبار الصحابة كبلال بن رباح وعمار بن ياسر وسلمان الفارسي وأبو ذر الغفاري وأبو موسى الأشعري وغيرهم، ووصل عددهم أحيانا إلى ثلاثمائة وربما أربعمائة[2].

كان الرسول صلى الله عليه وسلّم يتعهدهم بالرعاية والإهتمام، وقد اتصف أهل الصفة بالزهد والاعراض عن الدنيا وجاء ذكرهم في العديد من الآيات القرآنية كقوله تعالى: "ولَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ"[3] وقوله أيضا: "لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ"[4].

[1]- كامل مصطفى الشيبي، صفحات مكثفة من تاريخ التصوف الإسلامي، دار المناهل، بيروت، لبنان، ط1، 1997م، ص.07.

[2]- ينظر: أسعد السحمراني، التصوف منشؤه ومصطلحاته، دار النفائس، بيروت، ط1، 1987م، ص.15.

[3]- سورة الأنعام، الآية 52.

[4]- سورة البقرة، الآية 273.

وأهل الصفة من أفقر الناس وأشدهم ورعا وتقوى وصفهم أبو نعيم الأصفهاني بقوله:"هم قوم أخلاهم الحق من الركون إلى شيء من العروض، وعصمهم من الافتتان بها عن الفروض، وجعلهم قدوة المتجردين من الفقراء لا يأوون إلى أهل أو مال، ولا تلهيهم عن ذكر الله تعالى تجارة ولا مال، لم يحزنوا على ما فاتهم من الدنيا، ولم يفرحوا إلا بما أُيِّدوا به من العقبى"[1]، لذلك أطلق لفظ الصوفية على طائفة من الناس اقتربت أوصافهم من أوصاف أهل الصفة، ولا يجد أبو بكر الكلاباذي حرجا في هذا الرأي، فيقول: "إنما سموا صوفية لقرب أوصافهم من أوصاف أهل الصفة الذين كانوا على عهد رسول الله"[2].

إن إرجاع مصطلح التصوف إلى أهل الصفة هو دليل قاطع على شرعيته الإسلامية فلا شك "أن أصحاب الرسول كانوا رواد الروح الأوائل لصوفية الإسلام والمسلمين، فقد حرّك الرسول فيهم عقيدة التوحيد الصافي النقي، كما دعاهم إلى هجران الحياة الدنيوية المضطربة الآثمة وذكّرهم بالحياة الأخروية وخلود الروح ونشأة الجسد النشأة الثانية"[3]، غير أن هناك من يرفض هذه النسبة لأنه لو صحّت نسبة الصوفية إلى أهل الصفة لقيل: صُفِيٌّ وليس صوفي[4]، كما أن أهل الصفة جنحوا إلى الفقر والعزلة والزهد مجبرين لا مخيرين والأحاديث التي تحثهم على الصبر خير دليل على ذلك، فعن عبد الله بن عبد الأسد المخزومي قال: "كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلّم فشكونا إليه الفقر والعري وقلة الشيء، فقال صلى الله عليه وسلّم: اصبروا فوالله لأنا من كثرة الشيء أخوف عليكم من قلّته، وإنه لا يزال هذا فيكم

[1]- أبو نعيم الأصفهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط4، 1405هـ، ص23.

[2]- أبو بكر الكلاباذي، التعرف لمذهب أهل التصوف، دار الكتب العلمية، بيروت، د ط، 2001 م، ص10.

[3]- محمد جلال شرف، دراسات في التصوف الإسلامي، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، د ط، 1984م، ص55.

[4]- ينظر: عبد الفتاح أحمد فؤاد، فلاسفة الإسلام والصوفية وموقف أهل السنة منهم، دار الوفاء، ط1، 2002م، ص204.

حتى تفتح لكم أرض فارس والروم وأرض حِمْيَر"[1]، وبالفعل فقد تغيرت أحوال أغلبهم بعد أن فتح الله عليهم مغانم كثيرة.

يضاف إلى ذلك أن أهل الصفة لم يكونوا كلهم أصحاب ورع وزهد، بل كان فيهم من لا مزية له في علم ولا دين ومنهم من ارتدّ عن الاسلام وقتله النبي[2]، فالتصوف إذن "لا يمكن إرجاع أصله إلى أهل الصفة، ومن قال بذلك فقد أراد أن يجعل لهذا التصوف مصدرا إسلاميا عريقا، إلا أنه أخطأ ولم يصب شيئا من الحقيقة"[3].

*** صوفة:**

بني صوفة قبيلة عربية كانت تقيم حول الكعبة وقيل أنها تنسب إلى ربيط الكعبة (الغوث بن مرّة) الذي أختص بالإجازة للحج، وسمي الغوث بن مرة ب(صوفة) لأن أمه لم يكن يعيش لها ولد، فنذرت نذرا أنها إن أنجبت ولدا وعاش لتعلقن برأسه صوفة ولتجعلنه ربيط الكعبة، فوفت نذرها وقيل له ولولده من بعده: صوفة[4].

وجاء في لسان العرب لابن منظور "الصوفة كل من ولي شيئا من عمل البيت، وهم الصوفان. وذكر ابن منظور قول الجوهري: وصوفة أبو حي من مضر وهو الغوث بن مر بن أدّ بن طابخة بن إلياس

[1]- سميح عاطف الزين، الصوفية في نظر الإسلام، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، ط4، 1993م، ص16.

[2]- ينظر: ابن تيمية، الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، 1407هـ-1987م، ص ص36-37.

[3]- سميح عاطف الزين، الصوفية في نظر الإسلام، ص17.

[4]- ينظر:محمد علي كندي، في لغة القصيدة الصوفية، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2010 م، ص46.

بن مضر، كانوا يخدمون الكعبة في الجاهلية ويجيزون الحاج أي يفيضون بهم (...) وفيهم يقول أوس بن معراء السعدي:

| وَلَا يريمُون في التعريف مَوْقفَهُم حَتى يُقالُ أَجيزُوا آل صُوفَانا"[1].

وقد ثبتت هذه التسمية في التاريخ العربي إلى درجة ارتباط مناسك الحج بهذه القبيلة مما أعطاها امتيازا روحيا عظيما "فلم يكن الحجاج يفيضون من عرفات أو يرمون الجمار إلا بحضور رجل من هذه الأسرة"[2]، لذا نُسبت الصوفية إليه لمشابهتهم له في الانقطاع لعبادة الله وخدمة الحجيج، ويقول ابن الجوزي "أنبأنا محمد بن ناصر عن أبي إسحاق ابراهيم بن سعيد الحبال قال: قال أبو محمد عبد الغني بن سعيد الحافظ قال: سألت وليد بن القاسم إلى أي شيء ينسب الصوفي؟ فقال: كان قوم في الجاهلية يقال لهم صوفة انقطعوا إلى الله عزّ وجلّ وقطنوا الكعبة، فمن تشبّه بهم فهم الصوفية"[3]، وهذا يدل على أن التصوف كان معروفا في الجاهلية بمضمونه واسمه ثم عاد إلى الظهور مع الدين الجديد (الإسلام).

*** الصوف:**

يميل أغلب الدارسين إلى جعل مصطلح التصوف مشتق من الصوف، وهو المادة الأولية التي كانت ولا تزال تصنع منها الملابس وخاصة ملابس الفقراء والمساكين لرخص ثمنها وخشونة ملمسها، وهو أصح الآراء بحسب زكي مبارك لكونه لباس الأنبياء فقد "جاء أن رسول الله صلى الله عليه وسلّم كان يركب الحمار ويلبس الصوف، وعنه صلى الله عليه وسلّم أنه قال: مرّ بالصخرة من الروحاء سبعون

[1]- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط1، 1410هـ-1990م، ص200.

[2]- كمال مصطفى الشيبي، صفحات مكثفة من تاريخ التصوف الإسلامي، ص105.

[3]- ابن الجوزي، تلبيس إبليس، تحقيق حسن شلبي، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت، 2005م، ص161.

نبيا حفاة عليهم العياء يؤمون البيت الحرام. وعنه صلى الله عليه وسلّم أنه قال: يوم كلّم الله موسى عليه السلام كان عليه جبّة من صوف وسراويل من صوف، وقيل إن عيسى عليه السلام كان يلبس الصوف والشعر ويأكل الشجر"[1]، فالأنبياء كانوا يحبون لبس الصوف، وقديما كان الصوف مظهرا من مظاهر التقشف والزهد والورع، إذ يحكى أن "أبو إسحاق ابراهيم بن أدهم بن منصور من كورة بلخ رضي الله تعالى عنه كان من أبناء الملوك فخرج يوما متصيدا فأثار ثعلبا أو أرنبا وهو في طلبه فهتف به هاتف: يا ابراهيم ألهذا خُلقت أم بهذا أُمرت، ثم هتف به أيضا من قربوس سرجه: والله ما لهذا خلقت ولا بهذا أمرت، فنزل عن دابته وصادف راعيا لأبيه فأخذ جبة للراعي من صوف ولبسها وأعطاه فرسه وما معه، ثم إنه دخل البادية ثم دخل مكّة (...) ودخل الشام ومات بها وكان يأكل من عمل يده"[2]، فالصوف هو لباس خاص بالرعاة والفقراء والزهاد وقيل إن الصوفي هو من لبس الصوف.

ويرى المستشرق الألماني نولدكه (Noldeke) أن كلمة التصوف مشتقة من الصوف[3]، ويقول الكلاباذي "ومن لبسهم وزيهم سموا صوفية، لأنهم لم يلبسوا لحظوظ النفس ما لان مسه وحسن منظره وإنما لبسوا لستر العورة، فَتَجَزوا بالخشن من الشعر والغليظ من الصوف"[4]، والرأي نفسه نجده عند السراج الطوسي إذ يقول: "فلما لم يكن ذلك نسبتهم إلى ظاهر اللبسة، لأن لبسة الصوف دأب الأنبياء عليهم السلام وشعار الأولياء والأصفياء (...) ألا ترى أن الله تعالى ذكر طائفة من خواص أصحاب عيسى عليه السلام فنسبهم إلى ظاهر اللبسة فقال عزّ وجلّ: " إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ" وكانوا قوما يلبسون

[1]- زكي مبارك، التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، ج1، د ط، د ت، ص44.

[2]- أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري، الرسالة القشيرية في علم التصوف، هوامش: زكريا الأنصاري، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، د ط، د ت، ص08.

[3]- ينظر: رينولد نيكلسون، الصوفية في الإسلام، ترجمة نور الدين شريبة، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، 2002م، ص11.

[4]- أبو بكر الكلاباذي، التعرف لمذهب أهل التصوف، ص12.

البياض فنسبهم الله تعالى إلى ذلك ولم ينسبهم إلى نوع من العلوم والأعمال والأحوال التي كانوا مترسمين، فكذلك الصوفية عندي"[1].

كما يشير زكي مبارك إلى أن اسم الصوفية اسم قديم وليس حديث عرفه العرب منذ الجاهلية، فقد ذكر أن الحسن البصري قال: "رأيت صوفيا من الطواف فأعطيته شيئا فلم يأخذ وقال: معي أربعة دوانيق يكفيني ما معي"[2]، ويضاف على ذلك أن مكّة قبل الاسلام في أصعب الأوقات كان لا يطوف بها أحد إلا رجل صوفي كان يجيء من بلد بعيد ليطوف بالبيت ثم ينصرف، فاسم الصوفي كان يطلق في الجاهلية على أهل الفضل والصلاح.

صحيح أن اشتقاق الصوفي من الصوف سليم من الناحية اللغوية فيقال تصوّف لمن لبس الصوف، إلا أن ارتداء الصوف ليس قاعدة عند كل الصوفيين، فقد قيل لأبي الحسن بن سمعون: "أيها الشيخ أنت تدعو الناس إلى الزهد في الدنيا والترك لها، وتلبس أحسن الثياب وتأكل أطيب الطعام، فكيف هذا؟ فقال: كل ما يصلحك لله فافعله، إذا صلح حالك مع الله بلبس ليّن الثياب وأكل طيّب الطعام فلا يضرك"[3]، ويزيد على ذلك الجوزي فيقول: "كان الزهد في بواطن القلوب فصار في ظواهر الثياب، كان الزهد حرقة فصار اليوم خرقة، ويحك صوِّف قلبك لا جسمك"[4]، فإرجاع مصطلح التصوف إلى الصوف فيه إنقاص لمذهب الصوفية حسب رأيهم واهتمام بظاهر الأمر وإغفال لجوهره.

[1]- السراج الطوسي، اللمع في التصوف، تحقيق كامل مصطفى الهنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2001م، ص24.
[2]- زكي مبارك، التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، ص53.
[3]- زكي مبارك، التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، ص47.
[4]- المرجع نفسه، ص46.

.

*** الصفاء– الصفوة– الصف الأول– صوفة القفا:**

يذهب الصوفية إلى أن التصوف مأخوذ من الصفاء لأن أصحابه "عرفوا بصفاء القلب وسلامة الطويّة والتخلي عن شؤون الدنيا"[1]، فالصوفي هو من صفت لله عبادته ومعاملاته، وقد أجاب الشبلي حين سُئل: من هو الصوفي؟ بقوله: من صفا من الكدر وخلص من العكر وامتلأ من الفكر وتساوى عنده الذهب والمدر"[2]، ويرى الزمخشري أن الصوفية مشتقة من الصفاء إذ تم قلب إحدى الفاءين في الصفة واوا للتخفيف وقيل لهم صوفية[3]، وهم يستأنسون بهذا الاشتقاق لدلالته على بواطنهم لا ظواهرهم.

وهناك من يرى أن الصوفية مأخوذة من الصفوة، فأصحاب هذا المذهب هم صفوة المؤمنين "ولكل أمة صفوة وهم وديعة الله الذين أخفاهم عن خلقه، فإن يكن منهم في هذه الأمة فهم الصوفية"[4].

ويرى فريق آخر أن الصوفية أُطلق عليهم هذا الإسم "لأنهم في الصف الأول بين يدي الله عزّ وجلّ بارتفاع هممهم إليه، وإقبالهم عليه، ووقوفهم بسائرهم بين يديه"[5]، وقال آخرون هو منسوب إلى صوفة القفا، وهي الشعرات النابتة في مؤخرة العنق، كأن الصوفي عطف به إلى الحق وصرفه عن الخلق"[6].

---

[1]– صهيب الرومي، التصوف الإسلامي، بيسان للنشر والتوزيع، بروت، لبنان، ط1، 2007م، ص56.

[2]– أبو نعيم الأصفهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ص23.

[3]– ينظر: الزمخشري، أساس البلاغة، دار بيروت للطباعة، بيروت، د ط، 1984م، ص365.

[4]– أبو بكر الكلاباذي، التعرف لمذهب أهل التصوف، ص20.

[5]– إحسان إلهي ظهير، التصوف المنشأ والمصادر، إدارة ترجمان السنة، باكستان، د ط، د ت، ص12.

[6]– عبد الكريم الخطيب، التصوف والمتصوفة في مواجهة الإسلام، دار الفكر العربي، ط1، 1980م، ص78.

.

*** سوفيا:**

ذهب كثير من المستشرقين إلى أن كلمة صوفي مأخوذة من (سوفيا) اليونانية التي تعني الحكمة، وأنكره وفنده نولدكه (Noldeke) حين رأى أن السيغما اليونانية في Sophos تقلب عند التعريب سيناً لا صاداً فنقول سوفي لا صوفي.

وبذلك تعددت الاجتهادات والدراسات لمعرفة أصل اشتقاق مصطلح التصوف، والظاهر أنه "ليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قياس، والاشتقاق والأظهر فيه أنه كاللقب فأما قول من قال أنه من الصوف وتصوّف إذا لبس الصوف كما يقال تقمص إذا لبس القميص فذلك وجه ولكن القوم لم يختصوا بلبس الصوف، ومن قال أنهم منسوبون إلى صفة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلّم فالنسبة إلى الصفة لا تجيء على نحو الصوفي، ومن قال أنه من الصفاء فاشتقاق الصوفي من الصفاء بعيد في مقتضى اللغة، وقول من قال أنه مشتق من الصف فكأنهم في الصف الأول بقلوبهم من حيث المحاظرة من الله تعالى فالمعنى صحيح ولكن اللغة لا تقتضي هذه النسبة إلى الصف، ثم إن هذه الطائفة أشهر من أن يحتاج في تعيينهم إلى قياس لفظ واستحقاق اشتقاق"[1]، فاسم الصوفي اسم جامد وليس مشتق والأرجح أنه لقب أطلق على جماعة من الناس لتمييزهم عن سواهم.

ب- التعريف الاصطلاحي:

[1]- أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري، الرسالة القشيرية في علم التصوف، ص126.

شعر الباحثون في التصوف بصعوبة وضع تعريف جامع ومانع له يتضمن كل جزئياته وتفاصيله باعتباره تجربة فردية مباشرة وفوريّة "فليس لتعريف مهما دقّ أن يكون ذا معنى شاملا وواضحا، ويتضمن جملة الخبرات التي توصف عادة بالوعي الصوفي"[1]، ثم إن الصوفية أنفسهم أقروا بصعوبة تحديد مفهوم واضح لما يعيشونه فقد أجمعوا "على أن تجاربهم الروحية أمور تستعصي على الوصف وتعلو على التعبير، وآثر الكثيرون منهم الصمت فلم يحاولوا أن يضعوا لها تفسيرا أو تعليلا، وإنما وصفوا ما أدركوه أو شاهدوه أو كُشف لهم عنه من الأحوال بأنها أمور ذوقية أو وجدانية لا تفي اللغة بالتعبير عنها أو ترجمتها بالألفاظ"[2].

غير أن هذه الصعوبة لم تمنع بعض الصوفية من وضع تعريفات للتصوف ، ذكر منها نيكلسون (Nicholson)ثمانية وسبعون(78) تعريفا في كتابه "في التصوف الإسلامي"، وجمع أبو نعيم الأصفهاني ثمانمائة تعريف في كتابه "حلية الأولياء وطبقات الأصفياء" أما الشيخ الزَرُوق فقد أوصلها إلى ألفين حيث يقول "قد حُدَّ التصوف ورُسم بوجوه نحو الألفين ترجع كلها لصدق التوجه إلى الله تعالى"[3]. والتصوف في حقيقته ظاهرة دينية عالمية قائمة على مبدأ الإيثار والتضحية باللذائذ ومجاهدة النفس وأهوائها للفوز بالخير المطلق، أو هو عبارة عن ميول فطري إلى الكمال الإنساني والمعرفة المطلقة، فهو "منهج روحي في الحياة يقوم على المجاهدة والتصفية الروحية ويستند إلى التوكّل المطلق وفي الكلام

[1] – Iliada Mircea, Encyclopedia of religion, P305.

[2] – صهيب الرومي، التصوف الإسلامي، ص54.

[3] – نور الهدى الكتاني، الأدب الصوفي في المغرب والأندلس في عهد الموحدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2008م، ص09.

يتخذ الجبرية أساسا"[1]، ولا يسعنا المقام هاهنا لعرض كل التعاريف التي وضعها الصوفية لتحديد معنى التصوف لذا سنقتصر على بعضها عند أشهر أقطابها:

- **معروف الكرخي (ت :200هـ) :**

يُعَرف التصوف بقوله"هو الأخذ بالحقائق واليأس مما في أيدي الخلائق"[2]، فالصوفي مكلف بالبحث عن جواهر الأشياء لا قشورها فلا يجب عليه أن يكتفي بظواهر الأمور التي تتبدى للناس عامة، ولا تتحقق له هذه المعرفة الباطنية اليقينية إلا إذا أعرض عن ملذات الدنيا وقمع شهوات النفس والجسد.

- **أبو القاسم الجنيد (ت:297هـ) :**

سُئل الجنيد عن التصوف فقال: "هو أن يميتك الحق عنك ويحييك به"[3]، فلا تشعر بوجودك وإرادتك إلا حين تتصل بالخالق، وقال أيضا: "الصوفية هم أهل بيت واحد لا يدخل فيهم غيرهم"[4]، أي أنهم طائفة من الناس تجمع بينهم صفات خاصة ولغة خاصة لا يفهمها غيرهم من الناس، وطريقة عيش خاصة لا يقدر عليها سواهم.

ويبين الجنيد في موضع آخر كيفية الحصول على التصوف فيقول: "إننا لم نحصل على هذا التصوف بالقيل والقال، ولم نحصل عليه بالحرب والقتال، ولكننا حصلنا عليه بالجوع والسهر والامتناع

[1]- علي حسن الجابري، دروس في الفكر الفلسفي الإسلامي (علم الكلام والفلسفة والتصوف)، دار الفرقد، دمشق، ط1، 2010م، ص163.
[2]- أمين يوسف عودة، تأويل الشعر وفلسفته عند الصوفية، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2008م، ص12.
[3]- أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري، الرسالة القشيرية في علم التصوف، ص126.
[4]- المصدرنفسه، ص127.

عن الدنيا والانقطاع عما نحبه وعما زيّن في أعيننا"[1]، فالتصوف هو مجاهدة لأهواء النفس وإفناء لها وزهد عن طيّب الدنيا، وإتباع لهدى القرآن والرسول، فهو "تدريب النفس على العبودية وردّها لأحكام الربوبية"[2] من خلال "ذكر مع اجتماع ووجد مع استماع وعمل مع اتباع"[3]، ثم يجمل لنا الجنيد خلاصة تجربته الصوفية في قوله: "التصوف تصفية القلب عن موافقة البريّة، ومفارقة الأخلاق الطبيعية، وإخماد الصفات البشرية ومجانبة الدواعي النفسانية ومنازلة الصفات الروحانية، والتعلق بالعلوم الحقيقية واستعمال ما هو أولى على الأبدية والنصح لجمع الأمّة، والوفاء لله على الحقيقة واتباع الرسول صلى الله عليه وسلّم في الشريعة"[4].

- **ذو النون المصري (155- 245هـ) *:**

وجد أن الصوفي "هو الذي لا يتبعه طلب ولا يزعجه سلب" والمتصوفة "هم قوم آثروا الله تعالى على كل شيء فآثرهم الله على كل شيء"[5] وإذا نطق الصوفي "أبان نطقه عن الحقائق وإذا سكت نطقت عنه الجوارح"[6].

- **أبو الحسين النوري:**

[1]- قاسم الغالي، تاريخ التصوف الإسلامي، ترجمة صادق نشأة، مكتبة النهضة المصرية، د ط، 1970م، ص09.

[2]- محمد عبد المنعم الخفاجي، الأدب في التراث الصوفي، مكتبة غريب، القاهرة، د ط، د ت، ص33.

[3]- محمد مصطفى حلمي، الحياة الروحية في الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط2، د ت، ص111.

[4]- رفيق العجم، موسوعة مصطلحات التصوف الإسلامي، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط1، 1999م، ص187.

*- صوفي جليل ، وإمام كبير، و رأس المدرسة الصوفية، وُلد بأخميم و هو نوبي الأصل. ينظر، محمد عبد المنعم الخفاجي، الأدب في التراث الصوفي، ص 54 -55.

[5]- أسعد السحمراني، التصوف منشؤه ومصطلحاته، ص32.

[6]- عبد الفتاح أحمد فؤاد، فلاسفة الإسلام والصوفية وموقف أهل السنة منهم، ص208.

يرى أن"الصوفية هم الذين صفت أرواحهم فصاروا في الصف الأول بين يدي الله(...) وليس التصوف رسما ولا علما ولكنه خلق، لأنه لو كان رسما لحصل بالمجاهدة ولو كان علما لحصل بالتعليم ولكنه تخلق بأخلاق الله"[1].

- **بشر بن الحارث الحافي(ت :227هـ) :**

عرّف الصوفي بقوله: "الصوفي من صفا قلبه لله" أو هو "من اختاره الحق لنفسه فصافاه وعن نفسه فبراه، ولم يردّه إلى تعمل وتكلف بدعوى"، وفي المعنى نفسه يقول أبي علي الروذباري "الصوفي من لبس الصوف على الصفا، وأطعم الهوى ذوق الجفا وكانت الدنيا منه على القفا، وسلك منهاج المصطفى"[2].

فهذه التعاريف تكاد تُجْمع على معنى واحد هو الصفاء والفناء عن النفس وكبح جماحها وقمع أهوائها والزهد في الدنيا واتباع سنة المصطفى. فالتصوف عموما "هو الدخول في كل خُلُق سَني والخروج من كل خُلُق دَنيّ"[3].

من خلال هذا السرد البسيط نلاحظ أن كل تعريف يتناول جانبا أو حالة معينة من أحوال التصوف، الأمر الذي يجعل الإحاطة به صعبة جدا كما أشرنا سابقا، لكن مع ذلك يعد التصوف "من أفضل العلوم وأشرفها وشرفه بشرف المعلوم، ولا يمكن الاستغناء عنه إلا من جهل قيمته وحرم لذاته، وقد

[1]- المرجع نفسه، ص208.

[2]- محمد مصطفى حلمي، الحياة الروحية في الإسلام، ص110.

[3]- كمال الدين أبي الفضل جعفر بن تغلب الأدفوي المصري، الموفى بمعرفة التصوف والصوفي، حققه محمد عيسى صالحية، مكتبة دار العروبة، الكويت، ط1، 1408هـ-1988م، ص36.

تميز عن غيره من العلوم لكونه مأخوذ من الكشف والعيان بخلاف العلوم الأخرى المأخوذة من الدليل والبرهان، وهو بذلك منزه عن الجدل والنزاع"[1]، وهو طريق يوصل الصوفي إلى تجلية القلب وتحليته بذكر الله تعالى ومعرفة اليقين.

2- نشأة التصوف:

التصوف ظاهرة فكرية ينزع إليها الإنسان الميال إلى المعرفة والراغب في الحصول على الخلاص والراحة فهو "الصيحة الخالدة من جانب الروح الإنساني لتحصيل الراحة. إنه الشوق الذي لا يشبع إلا بالإمساك بالمثل الخالصة التي قيدها الواقع اليائس، هذا الروح الذي يأبى إلا أن يجعل صوته مسموعا، إنه مسيرة متوحدة بشكل عجيب في كل العصور وفي كل البلاد وفي كل العقائد سواء جاءت من حكيم براهمي أو فيلسوف إغريقي أو شاعر فارسي أو زاهد مسيحي أو راهب صيني، إنه جوهر الإعلان البيِّن

[1]- أحمد العلاوي، المنح القدوسية، المطبعة العلاوية، مستغانم، ط2، 1998م، ص11.

لتطلع الروح إلى الانقطاع الكلي عن نفسها والإتحاد بالإله"[1]، فالتجارب الصوفية في جوهرها واحدة وهذه الاختلافات إنما تعود "إلى التفاسير التي تمنح لها المتأثرة والمتلونة بلون الحضارة والدين الذي ينتمي إليه الصوفي"[2].

ومنه فالتصوف ظاهرة دينية عالمية ظهرت عند مختلف الأمم وفي كل الأزمنة، عرفه اليهود والنصارى والمجوس والمسلمون والرومان والصينيون وغيرهم، فهو"لم يكن ميزة لجنس معيّن أو لثقافة معيّنة، وإنما كل ثقافة روحية كبرى تقدم من التصوف الصورة التي تلائمها"[3]، ولن نتطرق إلى نشأة التصوف عند كل الأمم، بل سنقتصر على التصوف المسيحي والهندي والإسلامي باعتبار أن أديبنا جبران خليل جبران اصطبغت كتاباته ببعض مبادئهم.

بدأ التصوف المسيحي مع سيدنا المسيح عيسى عليه السلام، فقد كان يعيش حياة تقشف وزهد ويلبس الصوف ويأكل الشجر ودعا أتباعه إلى السير على طريقه، فمر بذلك بتجربة صوفية عمل على ترسيخ مبادئها لدى الحواريين الذين كلفهم بنقل رسالته بعد موته الذي هو "الخلاص الذي وعد به العهد القديم"[4].

باشر الرُسُل(الحواريون) في تبليغ العقيدة الصحيحة وبُشْرى عيسى، فتكونت مجموعات كبيرة من المؤمنين الذين عملوا على بناء الكنائس وتنصيب الأساقفة والكهنة ليعلموا الناس الدين ومبادئه ويوسعوا

[1]- سفيان زدادقة، الحقيقة والسراب قراءة في البعد الصوفي عند أدونيس مرجعا وممارسة، ص ص54-55.

[2]- ينظر : محمد عبد الله الشرقاوي، الصوفية والعقل، دار الجيل، بيروت، د ط، 1995م، ص36.

[3]- ناجي حسين جودت، المعرفة الصوفية، دار الجيل، بيروت، ط1، 1992م، ص129.

[4]- عبد المجيد الشرفي، الفكر الإسلامي في الرد على النصارى إلى نهاية القرن الرابع/ العاشر، ص39.

نطاقه مرتكزين في ذلك على فكرة الحب الإلهي التي نادى بها عيسى والتي كانت من أهم المرتكزات التي بني عليها التصوف المسيحي في مراحله الأولى، ثم تلون هذا الأخير فيما بعد بألوان عديدة أخرجته عن المسيحية الحقّة، إذ صار يعتقد بفكرة ألوهة الكائن البشري، ويمارس طقوسا خاصة في أماكن معينة هي الأديرة.

أما التصوف الهندي فهو قديم ومتنوع إذ عرفت الهند ديانات عديدة من أشهرها الهندوسية والبوذية، فالهندوسية دين متطور يجمع تقاليد الهند وعاداتهم وصور حياتهم، وسميت بالبرهمية ابتداء من القرن الثامن قبل الميلاد نسبة إلى براهما(الإله الخالق)، ومن براهما اشتقت كلمة البراهمة لتدل على رجال الدين الذين يعتقدون أنهم يتصلون في طبائعهم بالعنصر الإلهي، وهم صوفية الأمة وكهنتها، وتؤمن الهندوسية بعقيدة التناسخ ووحدة الوجود[1]، اللتين أرجأنا الحديث عنهما إلى الفصل الثاني من البحث.

أما البوذية فظهرت نتيجة لاستبداد البراهمة وتفشي نظام الطبقات، وتنسب إلى شخص يسمى بوذا كان ابن ملك يعيش في القصور ويتمتع بملذات الحياة، وذات مرة خرج من القصر فرأى موكب جنازة، ثم تمشى قليلا فشاهد رجلا مريضا فتساءل عمن فعل بهما ذلك، وأخذ يتأمل في هذه الحياة فأصابه التشاؤم وعزم على إيجاد حل لهذه المشاكل أي للشباب الذي ينتهي وللصحة التي تفنى وللعمر الذي يذهب، فودّع زوجته وتوجه إلى الكهوف ليقيم مع بعض المتصوفين البراهمة فنافسهم في حياة الزهد

[1]- ينظر: مصطفى حلمي، الإسلام والأديان دراسة مقارنة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1424هـ-2004م، ص51.

والتنسك والتقشف والحرمان وإذلال البدن إلى أن حصل على المعرفة(النرفانا)* ، وعمل على حث الناس على اتباع طريقه التقشفي الصوفي[1] الذي ذاع وانتشر وصار معروفا باسم التصوف البوذي.

في حين لم يكن اسم التصوف أو الصوفي معروفا في صدر الإسلام، ولم يَتَسمّ به المسلمون في عهد الرسول صلى الله عليه وسلّم ولا في عهد الصحابة رضي الله عنهم، فهو لقب محدث ظهر نتيجة للبدع والفتن التي شاعت بين الفرق الإسلامية، فاختص به طائفة من المسلمين أعرضت عن ملذات الدنيا وتفرغت للعبادة، ويؤكد ذلك القشيري فيقول: "اعلموا رحمكم الله تعالى أن المسلمين بعد رسول الله صلى الله عليه وسلّم لم يتسمّ أفاضلهم في عصرهم بتسمية علم سوى صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلّم إذ لا فضيلة فوقها، فقيل لهم الصحابة ولما أدركهم أهل العصر الثاني سمي من صحب الصحابة التابعين ورأوا ذلك أشرف سمة ثم قيل لمن بعدهم أتباع التابعين ثم اختلف الناس وتباينت المراتب فقيل لخواص الناس ممن لهم شدة عناية بأمر الدين الزهاد والعباد ثم ظهرت البدع وحصل التداعي بين الفرق فكل طريق ادعوا أن فيهم زهادا فانفرد خواص أهل السنة المراعون أنفاسهم مع الله تعالى الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم التصوف"[2] في أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الثالث للهجرة، حيث أطلق لأول مرة على أبي هاشم الكوفي وهو عثمان بن شريك المتوفى سنة 150 هـ[3].

* النرفانا: مصطلح سنسكريتي هندي يشير إلى حالة متعالية يصل إليها الناسك بعد مسار طويل من الزهد والتأمل والتركيز.(سفيان زدادقة، الحقيقة والسراب قراءة في البعد الصوفي عند أدونيس مرجعا وممارسة، ص74).

[1]- ينظر: مصطفى حلمي، الإسلام والأديان دراسة مقارنة، ص ص67-68.

[2]- أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري، الرسالة القشيرية في علم التصوف، ص07.

[3]- ينظر: صديق بن حسن القنوجي، أبجد العلوم، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط1، 1423هـ-2002م، ص324.

عرف المجتمع الإسلامي في القرن الثاني للهجرة في عهد التابعين مجموعة من الفتن تسببت في إراقة دماء المسلمين، وانغماسهم في الترف والمجون مع اتساع الفتوحات الإسلامية، الأمر الذي جعل طائفة من العباد تعتزل المجتمع لتسلم بدينها وتُؤْثر عدم الاختلاط بالناس، فتشددت في العبادة على نحو لم يسمع به من قبل معلنة بذلك ميلاد التصوف الإسلامي الذي كان في أول أمره "طريقة في الحياة اتصفت بالرغبة الشديدة في شؤون الدين والاستهانة بأمور الدنيا، والقيام بالفرائض الدينية"[1]، ثم اتسع أفق التفكير الصوفي وتأثر بتيارات أجنبية كاليونانية والفارسية والهندية والأفلاطونية الحديثة[2] فاصطبغ بصبغة غنوصية تهدف إلى المعرفة الإلهية، وكان هذا في القرنين الثالث والرابع الهجري، وقيل عنه في هذين الدورين "إنه أروع صفحة تتجلى فيها روحانية الإسلام، حيث يفسر هذا الدين تفسيرا عميقا يشبع العاطفة ويغذي القلب"[3]، غير أنه بعد ذلك بالغ الصوفية كثيرا في تقديس الأولياء وكراماتهم، وفي تعذيب الجسد والشطحات*والمجاهدات وعدم القيام بالفرائض، فتطرف عن مبادئ الإسلام ولم يؤخذ بكلامهم ومعارفهم بل أطلق عليهم اسم المجاذيب.

[1]- صهيب الرومي، التصوف الإسلامي، ص59.

[2]- ينظر: حسين علي حمد، قاموس المذاهب والأديان، دار الجيل، بيروت، ط1، 1419هـ-1998م، ص140.

[3]- مصطفى حلمي، ابن تيمية والتصوف، دار العودة، الاسكندرية، د ط، د ت، ص د.

* الشطح لغة هو الحركة أما اصطلاحا فهو كلام يتلفظه اللسان بعد أن يصل الصوفي إلى مرحلة يغيب فيها عن وعيه وشعوره، فيتدفق المعنى الذي كشف له على لسانه ليخرج على شكل ألفاظ غريبة مبهمة عاجزة عن توضيح المعنى، ويقال أنمى كلما اتسعت الرؤيا لدى الصوفي حين يبلغ حال الفناء ضاقت العبارة. ومدة الشطح قصيرة جدا وحالما يعود الصوفي إلى وعيه وحالته الطبيعية ويعيدون عليه ما قال يستغرب ويبدأ في الاستغفار وكأنه اقترف ذنبا.(ينظر: صهيب الرومي، التصوف الإسلامي، ص ص194-195)، أو هو كلمة عليها رائحة الرعونة والدعوى تصدر من أهل المعرفة باضطرار واضطراب.(ينظر: عبد المنعم الحفني، معجم المصطلحات الصوفية، دار السيرة، بيروت، ط1، 1980م، ص140).

.

3- أنواع التصوف:

انتهت الدراسات المقارنة إلى أن التصوف عموما ثلاثة أنواع: تصوف ديني وتصوف فلسفي وتصوف طبيعي.

* **التصوف الديني:**

ينشأ هذا النوع من التصوف في أحضان الدين، ويصل إليه الإنسان عن طريق مجاهدة رغبات النفس، وألوان من المشقة الجسدية والزهد في الدنيا لتصفية القلب من أدران المادة وشوائبها، وحين يحصل له ذلك ينفصل عن الواقع (الدنيا) ويتصل بالخالق وهو ما يصطلح عليه بالفناء.

*** التصوف الفلسفي أو العرفاني:**

.. لا يختلف التصوف الفلسفي عن التصوف الديني بل هو مرحلة متطورة منه، يعبر فيه الصوفي عن تجربته الذوقية في ضوء المذهب الفلسفي الذي ينتمي إليه، فيمزج أذواقه الصوفية بأنظاره العقلية من خلال مصطلحات فلسفية، ويتميز هذا النوع بالغموض والإبهام وغالبا ما اتهم أقطابه بالزندقة والإلحاد وأقيم عليهم الحد (القتل)[1].

*** التصوف الطبيعي:**

هو نزعة فطرية توجد عند كل فرد، فالذات الإنسانية تنزع إلى تأمل الطبيعة ومظاهر جمالها وقوتها وضعفها لتكتشف قدرة الخالق وقوته وجبروته، وهذا النوع نجده عند أتباع المذاهب الرومانسية من شعراء وأدباء وفنانين الذين يؤمنون بأن الطبيعة هي تجليات لروح واحدة –الخالق– فالله تعالى موجود فيها، وبعبارة أخرى يرون أن الطبيعة هي الله والله هو الطبيعة[2].

[1]– ينظر: إبراهيم تركي، فلسفة الموت عند الصوفية، دار الوفاء، الإسكندرية، ط1، 2003م، ص ص15-31.

[2] – voir: Great books if the western world, The introduction, Chicago: Encyclopedia Inc, 1990, vol.1, ch.29(God), P443.

4- خصائص التصوف أو التجربة الصوفية:

التجربة الصوفية تجربة عالمية وجدانية لا تتحيز بصقع محدد، ولا تختص بأمة بعينها، تعاش بالمشاعر والأحاسيس بكل حالات النفس قلقا واضطرابا وهدوءا وتوترا واغترابا، وهي في لبِّها واحدة تشترك على اختلاف دوائرها الدينية والجنسية والمكانية في جملة من الخصائص هي:

*** الإستعصاء على الوصف:**

لا يستطيع الصوفي أن يعبر عن تجربته تعبيرا واضحا، فلا الألفاظ ولا العبارات قادرة على نقلها نقلا أمينا إلى الآخرين، وهذا راجع إلى أن التجربة الصوفية هي تجربة فردية تميل إلى السرية وعدم المشاركة ولا يصل إليها إلا فئة قليلة من الناس المتدينين، فهي ذات طابع باطني[1] أو حالة نفسية أو موقف وجداني لا يخضع لقوانين العقل والمنطق وقواعد التعبير ذلك أن الصوفي يهتم بنقل مضمون التجربة التي عاشها فلا يعطي أهمية للعبارات والألفاظ، لذا فأي وصف لها مهما دقّ لا ينقل المضمون الحقيقي لها.

كما أن الصوفي يرى أن المعرفة التي حصل عليها معرفة عالية سامية تتجاوز حدود القدرات البشرية، فالحقيقة الصوفية مما لا يمكن الإشارة إليها بالعبارات والإيماءات الرمزية فهي "خبرة مخصوصة لا يمكن فهمها إلا ممن يتذوقها بذاته أو من صوفي قرين له كابد التجربة بنفسه، والذي له نوع تذوق للمتجاوز الخفي المستور وراء الرمز"[2]، وما دامت وسائل الاتصال البشرية عاجزة أمام الحقيقة الصوفية، فغالبا ما يلجأ الصوفي إلى التعبير عنها بلغة خاصة تتسم بالغموض والرمزية، والرمز كما هو معروف يخفي من المعاني بقدر ما يظهر، وحين لا يشعر بالرضى عن ما وصفه يجنح إلى الصمت أو الخرس، ويقول الكلاباذي: "مشاهدات القلوب ومكاشفات الأسرار لا يمكن العبارة عنها على التحقيق، بل تعلم بالمنازلات والمواجيد، ولا يعرفها إلا من كابد تلك الأحوال وحل تلك المقامات"[3]، فهي خبرة تتجاوز حدود العقل والكتابة والإدراك الفكري "إنها مما لا يمكن فهمه إلا من خلال المعاناة الذاتية، ومع

[1] - voir :Dan Joseph, Jewish Mysticism and Jewish Ethics, Jason aronson Inc, 1996, P10.

[2] - Ibid, P10.

[3] - أبو بكر الكلاباذي، التعرف لمذهب أهل التصوف، ص70.

ذلك فهي لحظة تتسم بالعالمية في الخبرة الإنسانية العامة، متجذرة باستقلال في لحظة إشراق ذاتي، هي وليدة ذاتها، ليست بحاجة إلى شهادة تصديق أو تبرير منتحل من خارجها"[1].

*** القيمة التجريدية:**

التصوف تجربة ذاتية لا تخضع للمقاييس الموضوعية ولا تتقيد بحدود العقل والمنطق، فهي مما لا يقع في نطاق العلم الذي يعتمد على الاستدلال والبرهان، بل هي معرفة حدسية لأعماق الحق الذي يلقى في قلب الصوفي على شكل إلهام أو كشف "وليس لصاحب الحس إدراك شيء منها(...) وليس البرهان والدليل بنافع في هذا الطريق، ردا وقبولا، إذ هي من قبيل الوجدانيات"[2].

*** الوقتية:**

إن الكشف الذي يحصل عند الصوفي هو أشبه بالومضة السريعة المفاجئة، فهو سريع الزوال لا يتجاوز حدود الساعتين[3].

[1] - Iliada Mircea, Encyclopedia of religion, PP.309-310.

[2]- عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة العلامة ابن خلدون، دار الفكر، 2010م، ص ص464-465.

[3]- ينظر: عبد الحكيم حسان، التصوف في الشعر العربي الإسلامي-نشأته وتطوره حتى آخر القرن الثالث الهجري، تقديم وتعليق عقبة زيدان، دار العراب ودار نور، سوريا، د ط، 2010م، ص34.

*** السلبية:**

يصل الصوفي بمجاهداته ورياضاته إلى الفناء فلا يحس بنفسه إلا ببقائه مع الله سبحانه وتعالى "فتفنى إرادته في إرادة المطلق"[1]، وهناك تقذف المعرفة في قلبه التي هي منحة أو عطية إلهية ربانية لا دخل للصوفي فيها إذ لا يساهم في صنعها بل مهمته مقصورة على تحضير ذاته لاستقبال المعرفة اليقينية أو الكشف الرباني والانتقال من عالم الجهل إلى عالم النور، وهذه الحقيقة اليقينية ليست بحاجة إلى حجج وأدلة بل هي معرفة سامية متعالية لا يمكن مقارنتها بالعلم الاستدلالي "فعلوم الفكر بكل وجه ما تقوم مقام علوم الذكر والوحي والوهب الإلهي، في الرفعة والمكانة"[2].

5- التصوف والأدب:

ارتبط الأدب عامة والشعر خاصة منذ القدم بالمعتقدات الدينية والأساطير والسحر، إذ كان أداة للتعبير عن القوى الغيبية ووسيلة للتواصل مع الآلهة، وقد عُدّ الشعر من مصدر إلهي يتلقاه الشاعر على شكل إلهام اختلف الدارسون في تفسيره، فقد ذهب قدماء اليونان إلى أن الإلهام هو وحي من الآلهة

[1]- إبراهيم تركي، فلسفة الموت عند الصوفية، ص16.

[2]- محيي الدين بن عربي، الفتوحات المكية، دار صادر، بيروت، ج2، د ت، د ط، ص704.

ومهمة الأدباء تكمن في استقباله ونشره بين الناس، وجاء في نظرية الأدب أن "الإلهام هو الاسم التقليدي لعامل اللاشعور في الإبداع، فإن التراث الكلاسيكي يربطه بآلهات الفن Muses بنات الذاكرة، كما يربطه التفكير المسيحي بالروح القدس، وعند التعريف تختلف حالة الإلهام لدى الكاهن أو النبي أو الشاعر عن حالته العادية، وفي المجتمعات البدائية قد يستطيع الكاهن بإرادته أن يضع نفسه في حالة ذهول، أو قد يكون غصبا عنه مجذوبا وواقعا تحت سيطرة روحية سلفية أو طوطمية، وفي العصور الحديثة يشعر الشاعر بأن للإلهام علامات أساسية هي الفجاءة، وانعدام الشخصية، إذ يبدو للمرء أن العمل قد كتب من خلاله"[1].

أما في التراث العربي فقد ارتبط الإلهام بِواد عبقر الذي يوجد فيه قرناء الجن الذين يلهمون الشعراء قصائدهم، لذا كان الشاعر العربي يميل إلى العزلة والسفر في الصحاري والإنفراد والصمت والتأمل في الطبيعة وتخير الأزمنة المساعدة على حدوثه، وفي ذلك شبه كبير بينه وبين طريق الصوفي.

ويعرف فليكس كلاي الإلهام بقوله: "إننا نطلق كلمة الإلهام على لحظات الإبداع الفجائية وهي لحظات تنتابنا مصحوبة بأزمات انفعالية، وتبدو بعيدة عن العمليات العادية للعقل والشعور، بعيدة عن حكم الإرادة، وسيطرتها غير متوقعة، ومجيئها غير مرهون بدعائنا كالنوم والأحلام"[2]، فالإلهام ظاهرة عفوية بعيدة عن العمليات العقلية، وهو ذو طابع فجائي وقتي وسريع الزوال "يأتي من مصدر علوي يتصف بالكمال والجمال المطلق، وبالتالي فهو قبس أو جزء من هذا الكل السرمدي، وكلما سما الإنسان

[1]- رينيه ويلك-أوستن وارين، نظرية الأدب، ترجمة محيي الدين صبحي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط2، 1987 م، ص88.

[2]- مصطفى سويف، الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة، دار المعارف، القاهرة، د ط، د ت، ص175.

عن الماديات تعلقت روحه أكثر بالمثل الأعلى والعناصر الخالدة، فيحصل الإلهام والتمازج، وينطق الشاعر بل ويتنبأ، فهو ملهم ولا يصدر عن نفسه. وهذه الأفكار الرومانسية هي أفكار صوفية عبّر عنها المتصوفة نظريا ومارسوها شعريا"[1]، وعليه يمكن اعتبار الإلهام عنصر مشترك بين التصوف والشعر.

يسعى الصوفي من وراء مجاهداته ورياضاته الروحية إلى بلوغ حالة الفناء ليظفر بالمعرفة الربانية التي تقذف في فؤاده على هيئة إلهام الذي "يمكن أن يحدث في حالات الصحو العادية، بيد أن حالة الفناء قد تكون الحالة القصوى التي تمكن الصوفي من الانفتاح على عالم الغيب، ولعلها تقارب بشكل ما حالة التأمل لدى الشاعر أو الفنان حينما يغيب عن نفسه غيابا مؤقتا ويتمركز حضوره في الفكرة أو الموضوع، وعندئذ تأخذ الأفكار طابع الحدس أو الإلهام. وفي هذا الجانب يقع الاشتراك بين الصوفي والشاعر في الإلهام، كل عبر طريقه الخاص"[2]، ومن هنا تتأكد علاقة الشعر بالتصوف، فكلاهما يهيئان الأسباب لحصول الإلهام، وكلاهما يهدفان إلى الخلاص "فالصوفية تدعو إلى السمو والارتفاع بالنفس البشرية فوق تفاهة الحياة اليومية، واهتمامات العالم الدنيوي الذي لا يرى من حياته سوى يومه المحدود بالزمان والمكان، ونفس المهمة يحاولها الأدب فالمعروف أن الوحدة العضوية التي تميز الأعمال الأدبية الناضجة عبارة عن تجسيد موضوعي لوحدة الكون التي تتمثل بصفة خاصة في علاقة الحب الصافي والنقي بين الخالق والمخلوق"[3] و"الشاعر –مثله مثل الصوفي– يلج الأعمق والأسمى والأنبل، في محاولة تخطيه عوالم الحس المتدنية واعتلائه عوالم الأبدية المتعالية، حيث تنبجس حقائق الروح المثلى بكل معانيها وتجلياتها"[4]،

[1]– سفيان زدادقة، الحقيقة والسراب قراءة في البعد الصوفي عند أدونيس مرجعا وممارسة، ص190.

[2]– أمين يوسف عودة، تأويل الشعر وفلسفته عند الصوفية، ص ص137–138.

[3]– نبيل راغب، موسوعة النظريات الأدبية، الشركة المصرية العالمية للنشر، القاهرة، ط1، 2003م، ص403.

[4]– عبد القادر فيدوح، الرؤيا والتأويل، دار الوصال، وهران، ط1، 1994م، ص54.

فالتصوف باعتباره تجربة نفسية وجدانية لا يمكنه أن يبقى مستقلا عن الشعر الذي وجده أنسب وسيلة للتعبير عن أحواله ووجدانياته.

ويستعين الصوفية في المجالس التي يعقدونها للذكر والمناجاة بالسماع الذي جعلوه أحد أركان التصوف المساعدة على الانتقال بالصوفي من حال إلى حال، ونقصد بالسماع هنا الإنشاد، وحاسة السمع لديهم مقدمة على الجوارح الأخرى لأن فيها "من الأسرار الروحانية أنها تسمع فحوى الخطاب فتزيد على مدلول اللفظ معنى آخر غيره، وفيها أنها إذا سمعت الصوت الحسن يدركها الانفعال والأحوال المذكورة عن الرجال والسادة"[1]، فالسماع حال من أحوال الصوفية وهو يختلف من شخص إلى آخر كل حسب رتبته المعرفية، ولا يمكن أن يكون هناك سماع في غياب الشعر لغة الألم والفرح والوجد والجذب والشطح عند الصوفية الذين هم "أهل أذواق وأهل سماع، وتجربتهم تقترب إلى الفن إن لم نقل هي تجربة الفنان نفسها، يستعين السالك منهم بالسماع ولا يتواجد المتصوف إلا به، ولا يتم الانتقال من حال إلى حال إلا بالسمع. وأذن الصوفي تدرك الرقائق، وتعظم الله بالاستماع إلى معاني جماله وجلاله، ولعل هذا الطبع هو الذي أدى بهم إلى أن يرتبطوا بالشعر ارتباطا وثيقا. فاستعانوا في بداية التصوف بالشعر الغزلي والخمريات واهتدوا بعد أن رسخ التصوف (...) إلى أن الشعر لسانهم في نقل أشواقهم الإلهية ومواجيدهم وأذواقهم"[2]، لذا اقترن التصوف بالشعر لأنه أقرب الأشكال التعبيرية للنفس الإنسانية خيالا وعاطفة، والصوفي بحاجة إلى استعمال الشعر حين تتغلب عليه مجاهداته ويكثر عليه الوارد، فيتدفق الشعر من لسانه بصورة عفوية.

[1]- محمد بنعمارة، الأثر الصوفي في الشعر العربي المعاصر، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1422هـ-2001م، ص28.

[2]- محمد بنعمارة، الأثر الصوفي في الشعر العربي المعاصر، ص97.

والصوفية هم أصحاب علم وأدب حفظوا الشعر والحكمة واطلعوا على مختلف الثقافات الموجودة، وكانت مجالسهم لا تخلو من الشعر، فقد قال شيخ من أهل المدينة: "ما كنت أريد أن أجلس إلى قوم إلا وفيهم من يحدث عن الحسن وينشد للفرزدق"[1]، ومعنى هذا أن الحديث عن الحسن البصري كان فيه متعة أدبية وبراعة لغوية لا تقل شأنا عن إنشاد الفرزدق، وقد زخر المعجم الصوفي بمفردات جديدة لو دونت كلها لشكلت ثورة لغوية ولأخرجت اللغة من الجمود الذي تعرفه اليوم، ونذكر هنا على سبيل المثال لا الحصر خطبة عمر بن ذر التي قالها يوم مات ابنه "يا ذرّ، والله ما بنا إليك من فاقة، وما بنا إلى أحد سوى الله من حاجة. يا ذرّ، شغلني الحزن لك عن الحزن عليك (...) اللهم إنك وعدتني بالصبر على ذرّ، صلواتك اللهم ورحمتك، وقد وهبت له إساءته إليّ فهب لي إساءته إلى نفسه، فإنك أجود وأكرم (...) يا ذرّ، قد انصرفنا وتركناك، ولو أقمنا ما نفعناك"[2]، فقارئ هذه الخطبة يلاحظ تلك الأناقة اللغوية والمهارة التعبيرية الممزوجة بالحكمة الصوفية التي "ليست نتيجة تأمل في المطلق والكون والحياة والإنسان، وإنما هي خبرة متولّدة عن تجارب خاصة، وهذا العنصر كان يشدّ الحكمة (...) إلى الشعر بما هو شعور بالأشياء وتواصل ذاتي معها"[3].

برع الصوفية في النثر والشعر معا، ففي النثر كتبوا الحكمة والزهد والنصائح والوصايا وأدب الدعاء وأدب المناجاة والخطب والقصص، أما الشعر الصوفي فقد مرّ بخمسة مراحل هي:

- **المرحلة الأولى:**

[1]- زكي مبارك، التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، ص57.

[2]- المرجع نفسه، ص58.

[3]- خالد بلقاسم، الكتابة والتصوف عند ابن عربي، دار توبقال للنشر، المغرب، ط1، 2004م، ص217.

وفيها حاول الشعر الصوفي أن يُكَون نفسه ويضع أسسه خلال القرن الثاني للهجرة، ومن أعلامه رابعة العدوية التي عُرفت بحب الذات الإلهية، ومن أشهر أبياتها:

أُحبُك حُبَيْن حُب الهَوى *** وَحُبَ لأَنَك أَهْلٌ لـذَاكا

فَأَمَا الذي هُوَ حُبُ الهَوى *** فَشُغْلي بذكْرك عَمن سوَاكا

وَأَمَا الذي أَنْتَ أَهْلٌ لَهُ *** فَكَشْفُك للحجب حتى أراكا

فلا الحَمْدُ في ذا ولا ذاك لي *** ولكن لَك الحَمْدُ في ذا وذاكا[1]

- **المرحلة الثانية:**

ازدهر فيها الشعر الصوفي وتطور خلال القرنين الثالث والرابع هجريين، إذ برز أبو تراب عسكر بن الحسين النخشبي، وأبو زكريا يحي الرازي، وأبو حمزة الخراساني والمتنبي والشريف الرضي وغيرهم، ويقول أبو تراب في علامة المحبة:

لا تخْدَعن فللحَبيب دَلائلُ *** ولَدَيْه من تُحَف الحَبيب وَسَائل

منْهَا تَنَعُمُه بمُرّ بَلائه *** وَسُرُوُره في كُل مَا هُو فَاعل

[1]- كمال اليازجي، تاريخ الفلسفة الإسلامية، ترجمة ماجد فخري، الدار المتحدة للنشر، بيروت، د ط، د ت، ص325.

فالمَنْعُ منه عَطيَةٌ مَقْبُولة *** والفَقْرُ إكْرَامٌ وبرٌّ عَاجل[1]

- **المرحلة الثالثة:**

وتشمل القرنين الخامس والسادس، اتجه فيها الشعر نحو الحب الإلهي ومدح الرسول والشوق إلى الأماكن المقدسة، والدعوة إلى الفضائل وترك الرذائل، ومن شعرائها المعري ومهيار والسهروردي الشامي وعبد القادر الجيلاني وأبو عبد الله بن أحمد الأندلسي القرشي وغيرهم، ونذكر من شعر هذه الفترة على سبيل المثال لا الحصر بيتين للشاعر الصوفي عبد الرحيم البرعي:

يَا رَاحلينَ إلى منًى بقيادي *** هَيَجْتُمُوا يَوْمَ الرَحيل فُؤَادي

سرْتُم وَسَار دَليلُكم يا وحشتي *** الشَوْقُ أَقْلَقَني وَصَوْتُ الحَادي[2]

- **المرحلة الرابعة:**

وتجسدت في القرن السابع الهجري، إذ عرف فيها الشعر الصوفي نهضة لم يعرفها من قبل، برز فيها ابن الفارض وجلال الدين الرومي ومحيي الدين بن عربي والبوصيري وعبد العزيز الدميري وابن عطاء الله السكندري ومجد الدين الوتري وغيرهم، ومما قاله ابن الفارض نذكر:

أرِجُ النَّسيمِ سرَى منَ الزَّوراءِ *** سَحَراً فأحْيا مَيِّتَ الأحْيَاءِ

أهدى لنا أرواحَ نجدٍ عَرْفهُ، *** فالجَوُّ منهُ مُعَنبَرُ الأرْجاءِ

[1]- محمد عبد المنعم الخفاجي، الأدب في التراث الصوفي، ص168.

[2]- محمد عبد المنعم الخفاجي، الأدب في التراث الصوفي، ص171.

ورَوى أحاديثَ الأحبَّةِ مُسنِداً *** عَنْ إذخِرٍ بأذاخِرٍ وسِحَاءِ

فسَكِرْتُ مِنْ رَيَّا حَواشي بُردِهِ *** وسَرَتْ حُمَيَّا البُرْءِ في أدوائي[1]

- **المرحلة الخامسة:**

وتبدأ من القرن الثامن الهجري حتى يومنا هذا، ومن شعرائها الشعراني والنابلسي وغيرهما.

وبذلك يشكل الأدب الصوفي بنثره وشعره ثروة عظيمة ومعينا لا ينضب، فألفاظه وعباراته وتراكيبه لا زالت محتفظة بجدتها وحيويتها وغناها الدلالي بسبب اعتماده على الرمز بالدرجة الأولى وجنوحه إلى الغموض والإبهام، إذ القصيدة الصوفية مثلا على الرغم من أنها "تشترك مع الشعر في الوزن والقافية، والصور الشعرية وما يتبع ذلك من اهتمام بالإيقاع وانسجام الحروف، ولكنها تمتاز عنه بالمعجم الوظيفي، والموضوع المتحدث عنه ومقصدية الشاعر"[2]، فالمضامين الروحية والوجدانية التي تجتاح كيان الصوفي تفرض عليه معجم خاص مستمد من خصوصية التجربة التي عاشها وكابدها مما يجعله يضمِّن شعره نوعا من المعرفة الميتافيزيقية الغيبية، لذا يجدر بنا أن نهتم بهذا التراث الذي أغفلناه ردحا من الزمن، فيتحتم علينا "إعادة النظر في النص الصوفي والوقوف على طبيعة هذه الكتابة التي تشير ولا تصرِّح، وتتعامل مع اللغة في أعلى مستوياتها، وتطرح أسئلة في غاية الأهمية حول الوجود والخلق والمعرفة، وتقدم تفسيرا جماليا للعالم"[3].

[1]- ابن الفارض، ديوان ابن الفارض، شرح هيثم هلال، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط1، 2003م، ص09.

[2]- محمد مفتاح، دينامية النص، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط2، 1990م، ص155.

[3]- سفيان زدادقة، الحقيقة والسراب قراءة في البعد الصوفي عند أدونيس مرجعا وممارسة، ص 217.

.

الفصل الأول: الأصول الإجتماعية والمعرفية للفكر الصوفي

في أدب جبران خليل جبران

توطئة :

يقال أن الإنسان ابن بيئته، والأديب شأنه شأن أي شخص عادي لا يعيش في كهف منعزلا عن الناس وإنما ضمن مجتمع تتفاعل فيه مجموعة كبيرة من العوامل المتعددة التي تؤثر بشكل أو بآخر في تكوين شخصيته أولا ثم في نتاجه الأدبي ثانيا، ولا يمكن دراسة هذا الأخير دراسة موضوعية على قدر من الصحة والصواب دون الإحاطة بكل ما يحيط بحياة هذا الأديب، ولو أن ذلك صعب جدا لأنه يستحيل علينا أن نحصي كل المؤثرات التي ساهمت في صياغة نتاجه، لكن مع ذلك يتوجب علينا أن نعرض على الأقل أهم العوامل البارزة في حياته لأن "الخلاّق الأصيل هو، إلى حدّ كبير، ثمرة بيئته وضمير عصره"[1].

من هذا المنطلق صار لزاما علينا قبل الخوض في قراءة أي مصدر من مصادر أديبنا جبران خليل جبران لتقصي مظاهر نزعته الصوفية، أن نلم بمختلف المؤثرات المتباينة التي خضع لها وساهمت في بلورة وبوتقة جواهره العتيقة، فالذي لا يعرف مسقط رأسه وخصائصه لا يفهم صوره التعبيرية، والذي لا يحس بآلامه وأفراحه لا يدرك عمق أفكاره وكلامه وخطوطه، لاسيما و"أن جبران في تآليفه العربية لبناني محض، بل إقليمي، حتى في أسماء بعض أبطال قصصه وأماكنها، ولا بد للراغب في فهم جبران فهما تاما

[1]- جميل جبر، جبران في عصره وآثاره الأدبية والفنية، مؤسسة نوفل، بيروت، ط1، 1983م، ص11.

من زيارة ودرس الإقليم الذي نشأ فيه"[1] والظروف التي صنعت هذا الأديب العملاق الذي كرمته منظمة اليونيسكو العالمية بجعل سنة 1983 سنة جبران في جميع أنحاء العالم، بمناسبة مرور مائة سنة على ولادته، فأقيمت المهرجانات إحياء لذكراه من بيروت إلى واشنطن ومن باريس إلى لندن، فمن هو جبران الذي قال عن نفسه بأنه لغز؟ وما هي جذور نزعته الصوفية؟

1 – الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية للبنان:

تمتاز لبنان بموقع جغرافي مميز جعلها محط أطماع الدول القوية الراغبة في بسط نفوذها على المنطقة العربية، ففي الربع الأخير من القرن التاسع عشر كانت لبنان تابعة للسلطة العثمانية فعانت من ظلمهم وتعسف إقطاعهم، وعاشت البلاد حالة من الفوضى والاضطراب، و"أخذت تئن تحت كابوس من الجهالات والأنظمة الرجعية، فتخلفت عن ركب الحضارة الأوروبية، وتخبطت في دياجير الظلمة، من جراء سياسة البطش التي اتبعتها الدولة العثمانية، فالوالي دكتاتور مطلق... ينفي ويقتل ويصادر الأموال وفقا لمشيئته، وإشباعا لمطامعه"[2]والتاريخ غني بمثل هذا النوع من الحكام والحكم.

ونتيجة لاستبداد العثمانيين قامت حرب بين القبائل القيسية يدعمها الفلاحون والقبائل اليمنية يساندها الأتراك، ودارت الحرب بينهما في الجبال، كما اشتعلت حرب أهلية بين المسيحيين والدروز عام 1841، ووجدت فرنسا وإنجلترا في ذلك فرصة سانحة للتدخل في شؤون لبنان، فانحازت فرنسا للموارنة

[1]– نادرة جميل سراج، دراسات في شعر المهجر (شعراء الرابطة القلمية)، دار المعارف، مصر، د ط، 1964م، ص194.

[2]– سامي الكيالي، الأدب العربي المعاصر في سورية 1850–1950، دار المعارف مصر، د ط، 1959م، ص7.

المسيحيين وإنجلترا للدروز، وعمت البلاد اضطرابات عنيفة استمرت إلى غاية سنة 1845 ثم هدأت الأوضاع إلى سنة 1856 حين أصدر السلطان العثماني مرسوما ينص على المساواة بين جميع طوائف الإمبراطورية العثمانية ومنح الحريات الدينية، لكن هذا المرسوم بقي حبرا على ورق ولم ير النور بسبب تعسف الملّاك وطمعهم الشديد، فثار الفلاحون الموارنة بتحريض من رجال الدين عام 1857 واشتعلت حرب طائفية أهلية، نتج عنها مذبحة عام 1860 وهي ما عرف بالمذبحة المارونية الدرزية، خلّفت مقتل عشرين ألف شخص من المسيحيين، وتدمير ثلاثمائة وثمانون قرية، وخمسمائة وستون كنيسة وأربعون ديرا[1].

أرهقت هذه الأحداث كاهل الإمبراطورية العثمانية وأضعفتها، فانعدم الأمن والاستقرار في ربوعها، وسادتها الفوضى والاضطرابات حتى صارت تنعت بدولة الرجل المريض، الأمر الذي جعل الدول الرأسمالية الأوروبية تسارع لاقتسام ميراثها الضخم "فرست حملة فرنسية في بيروت لتنشر السلام، وأرسل الباب العالي فؤاد باشا، وخوّله بسلطات واسعة، فتباحث مع الدول الكبرى. تمخض ذلك عن وضع القانون الأساسي (Règlement organique) سنة 1864، قسمت فيه ولاية الشام إلى ولايتين، يتزعمها أحد الباشاوات، أما جبل لبنان فقد فُصل عن البلاد"[2] ومُنح له استقلال ذاتي.

نَعمت لبنان باستقلالها لكنها في المقابل تنازلت عن جزء كبير جدا من سُهولها ومرافئها، فتقلصت مساحتها إلى ثلاثة أخماسها، وضاقت سبل العيش على سكانها، وعمّهم الفقر والجوع والنظرة اليائسة إلى خيراتهم وهي تذهب إلى غيرهم.

[1] – ينظر: فلاديمير لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية الحديث، ترجمة عفيفة البستاني، دار التقدم، موسكو، د ط، 1971م، ص165.
[2] – المرجع نفسه، ص42.

أما النظام الاجتماعي السائد فهو نظام الإقطاع، فلم تكن لبنان في ذلك العصر مجتمعا قوميا موحدا بل مجموعة من الطوائف المنغلقة على نفسها "ففي بيروت وطرابلس مجتمع سني وفي الجنوب والبقاع مجتمع شيعي وفي الجبل مجتمع ماروني ومجتمع درزي ومجتمع أرثوذكسي. وكان للدول الكبرى بعض حماية على مجتمعاته: فرنسا صديقة الموارنة وانجلترا الدروز وروسيا الأرثوذكس والنمسا الملكيين(الكاثوليك)"[1]، ويجمع بين هذه المجتمعات إلى حدّ ما الإحساس الديني والإيمان بالله والتعصب والجهل وسيطرة الإقطاع والخضوع للقدر، وبغض الحكم التركي والطموح إلى الحرية.

وكانت الأراضي في معظمها مقسمة بين أميرية-ملك للدولة-، وأوقاف-ملك للمؤسسات الدينية-، وخاصة تفرض عليها الدولة ضرائب يقوم بجمعها الإقطاعي الذي يتمتع بسلطة مطلقة يمتلك الأراضي ويوظف الفلاحين.

2- البيئة الطبيعية لمسقط رأسه (بِشْري):

يرتبط الإنسان فطريا بالمكان الذي ولد فيه وفتح عينيه بين جوانبه وخطا أولى خطواته على ثراه ولعب ومرح بين أحضانه ونما وترعرع في جباله وسهوله وتهاويده، فهو أحب مكان إلى قلبه وروحه لا يقوى على مفارقته أو الابتعاد عنه إذ هو روح لجسده، وحتى إن فارقه فسيفارقه جسديا أما روحه فستبقى معلقة به، وآثاره مخزونة في لاوعيه تراوده بين الفينة والأخرى وتظهر بشكل أو بآخر في أعماله وتصرفاته وإبداعاته الأدبية.

[1]- جميل جبر، جبران في عصره وآثاره الأدبية والفنية، ص12.

ويعد جبران خليل جبران من أكثر الأدباء الذين عمل فيهم مسقط الرأس عمل السحر، فما من كلمة أو جملة أو سطر في كتاباته إلا وترجعك إلى بشري أو بيت الشرى أو بيت عشتروت، تقع شمال لبنان وهي عريقة في القدم تعود إلى الفينيقيين، وفي "العهد الصليبي كانت إقطاعة تابعة لإمارة طرابلس

تمتاز بشري بموقع استراتيجي وطبيعة متوازنة خلابة فيها من ألوان الجمال ما لا يمكن أن يصفه لسان أو تغفل عنه عين "جبال شامخة، غابات كثيفة عريقة في القدم، أنهار وشلالات، طقس قاس في حدته، رحيم في أيام صفاءه، وهو جميل خلاب في قسوته ورهبته، يبعث الرهبة في شتائه المليء بالثلوج والأمطار والرياح ويثير البهجة والانشراح"[1]، أما ربيعه فأزهار ملونة وروائح زكية وطيور مزقزقة فيصير بين أمطار الشتاء وحرارة الصيف "كصبية حسناء قد اغتسلت بمياه الغدير ثم جلست على ضفته تجفف جسدها بأشعة الشمس"[2].

عشق جبران طبيعة بشري إلى درجة الهيام، الأمر الذي جعله يحن إليها ويرغب في معانقتها وتكحيل عينيه برؤيتها، فما أن يغمض عينيه حتى تتراءى له أوديتها السحرية وجبالها المتعالية مجدا وعظمة، وما أن يصم أذنيه عن ضجة نيويورك حتى يسمع خرير سواقيها وحفيف غصونها[3]، ويعبر عن اشتياقه لها فيقول لصديقه يوسف الحويك: "أنا سكران يا يوسف، تتراءى لي جبال الأرز... والوادي

[1]- ريموند قبعين، النزعة الروحية في أدب جبران ونعيمة، ص19.

[2]- جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته العربية، تقديم ومراجعة وترتيب ميخائيل نعيمة، دار صادر، بيروت، ط1، 2002م، ص104.

[3]- ينظر: جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته العربية، ص102.

المقدس... وزوبعة أيام الشتاء... وأزهار الربيع العطرة... آه! أين لي من يحملني كما على بساط الريح إلى بشري"[1].

كانت طبيعة بشري مصدر إلهام لجبران منها استقى صوره وتشبيهاته وتعابيره، وحمّلها أفراحه وأقراحه وبثها شجونه وهواجسه، ومنها استمد "حبه للعواصف، وصارت رمز تطلعاته، لأنها تجسد القوة الفعلية التي تقلع العناصر الضعيفة والميِّتة، فتصورت الطبيعة في ذاكرته ووجدانه عارية من الغش والمراوغة ومثالا للطهر"[2]، ومنها استلهم قصصه وحكاياه، فقد تكرمت عليه بدفق من الإحساس والمشاعر جعلته يُنطق الأخرس ويُسمع الأصم ويُبصر الكفيف، فما من عنصر من عناصرها إلا ونجده حاضرا في كتاباته حضورا متميزا وفريدا.

كما ألهبت طبيعة بشري قريحة جبران التي صارت مثل نهر جارف جاد علينا بشتى أنواع الفنون الأدبية: القصة والحكاية والشعر والرسالة والخاطرة "فالطبيعة في صخورها وغاباتها وكنائسها وساحاتها، بليلها ونهارها وكافة فصولها وأحوالها مسرح للحوادث والقصص التي أتانا بها"[3]، "ففي عرائس المروج صور من الحياة في لبنان كما شهدها وتأثر بها وفي دمعة وابتسامة خواطر جادت بها قريحته متأثرة بتلك السماء السمحة والطبيعة الهادئة التي كان جديدا في البعد عنها صادقا في الشوق إليها. وفي الأجنحة المتكسرة مناظر مختلفة لتلك الطبيعة الموحية التي فجرت في قلبه الحب والحنان"[4]، وهذا دليل واضح على

[1]- بولس طوق، شخصية جبران في أبعادها التكوينية والحياتية المكونات الأولية، ص38-49.

[2]- مها خير بك ناصر، جبران أصالة وحداثة، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس، لبنان، د ط، 2002 م ، ص15.

[3]- ريموند قبعين، النزعة الروحية في أدب جبران ونعيمة، ص20.

[4]- نادرة جميل سراج، دراسات في شعر المهجر (شعراء الرابطة القلمية)، ص194.

أن تلك البقعة الغنية بمفاتنها الطبيعية احتلت مجرى الدم في إبداعاته، فصلته بها غير طبيعية فيها من القدسية والتبجيل ما لا يمكن أن نلحظه في إنتاج أي أديب عربي آخر.

لم يَعُدَّ جبران يوما طبيعة بشري مجرد جبال وأنهار وأودية جامدة، بل هي بالنسبة له كائنات حيّة تحس وتشعر بما يدور في أرجائها، فهي أفضل صديق وأنيس له، يشكو لها همومه فتخففها عنه، ويقاسمها أفراحه وأحزانه فتفرح لفرحه وتحزن لحزنه، وتحتضنه كما تحتضن الأم طفلها فتبدد عنه سواد المدينة وتريح نفسه وفكره من خلال تأمله في عناصرها التي ترمز "وتتكلم عن الأمومة، فالشمس هي أم هذه الأرض

ترضعها حرارتها وتحتضنها بنورها ولا تغادرها عند المساء إلا بعد أن تنومها على نغمة أمواج البحر وترنيمة العصافير والسواقي، وهذه الأرض هي أم للأشجار والأزهار تلدها وترضعها ثم تفطمها. والأشجار والأزهار تصير بدورها أمهات حنونات للأثمار والبذور الحيّة"[1]، والطبيعة أم للنفس البشرية تجدد روحها وتغسلها بطهرها ونقائها من الأدران التي ألصقتها بها المادة والركض خلفها، فتعلمها كيف تطمح إلى الكمال وتزهد عن صغائرها، يقول جبران "لما أزاحت تخيلاتي برقع المادة عن ذاتي المعنوية شعرت بنمو روحي يقربني من الطبيعة، ويبين لي غوامض أسرارها ويفهمني لغة مبتدعاتها"[2]، فالنفس لا تشعر بالحرية إلا في كنف الطبيعة التي تساعدها على النمو والارتقاء والسعي وراء كشف المجهول عن طريق التناقش معها في أسرار هذا الكون، إذ يقول جبران على لسان الساقية وكأنه يناقشها:

سِرْتُ في الوَادي وَقَدْ جَاءَ الصَبَاح مُعْلنًا سرَ وُجُود لاَ يَزُول

[1]- جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته العربية، ص163.

[2]- المصدر نفسه ، ص163.

فَإذا سَاقية بَيْن البطَاح تَتَغَنى وَتُنَادي وَتَقُول

مَا الحَيَاةُ بالهَنَاء إنَمَا العَيْش نُزُوع وَمرام

مَا الممَاتُ بالغنَاء إنما المَوْتُ قُنُوط وسقام

مَا الحَكيمُ بالكَلَام بَلْ بسر يَنْطَوي تَحْتَ الكَلَام

مَا العَظيمُ بالمقَام إنما المجْدُ لمن يَأْبَى المقَام

مَا النَبيلُ بالجُدُود كم نَبيل كان من قتلى الجُدود

مَا الذّليلُ بالقُيود قَدْ يَكُونُ القَيْدُ أسنى من عقود

مَا النَعيم بالثَواب إنما الجَنة بالقَلْب السليم

ما الجَحيمُ بالعذاب إنما القَلْب الخلي كل الجحيم

ما العَقَارُ بالنضار كَمْ شَريد كان أَغْنَى الأغنياء

مَا الفَقير بالحَقير ثَرْوة الدُنيا رَغيفُ وَردَاء

مَا الجَمَال بالوُجُوه إنَمَا الحُسْنُ شُعَاعٌ للقُلُوب

ما الكَمَالُ للنزيه رُب فَضْل كان في بَعْض الذُنُوب

هَذَا مَا قَالَتْهُ تلْكَ السَاقيَة لصُخُور عَنْ يَمين ويَسَار

رُبَ مَا قالته تلك الساقية كان من أسرار هاتيك البحَار[1]

كان جبران يرى في طبيعة بشري انعكاسا لروح الإنسان الطيبة والنقيّة والطاهرة، لذا دعا بإلحاح شديد إلى العودة إليها ليستعيد فطرته الأولى، فلطالما فضل التحدث عن الغابة بروائحها الشجية وألوانها المتناسقة وزقزقة طيورها عن المدينة ومنشآتها، وبعودة جبران إلى الغاب يحاول أن يعود إلى براءة الطفولة التي قضاها في بشري ذات المناخ الروحاني الذي يجعل من "شروق شمس جبلها فجرا ومن ضباب واديها غمرا، وفي فجرها وضبابها يكمن مفهوم القيامة، قيامة الشمس من الموت–الليل– وقيامة الروح من وادي هذا العالم"[2].

كما أن صخب المدينة جعل جبران يسعى جاهدا إلى العودة إلى بشري ثانية ولو في خياله، فكتب إلى نسيبه (نخلة جبران) قائلا: "رأيت خيالات عواطفك... جاءت... لترجع إلى قلبي صدى الأودية والطلول والسواقي المحيطة ببشري... فهل يأتي ربيع حياتنا ثانية فنفرح مع الأشجار، ونبتسم مع الزهور، ونركض مع السواقي، ونترنم مع العصافير مثلما كنا نفعل في بشري... هل نرجع ونجلس بقرب مارسركيس وعلى نهر النبات وبين صخور مارجرجس"[3] وقصة رجوع الحبيب التي كتبها جبران إنما هي تعبير صريح عن رغبته الشديدة في العودة إلى لبنان الحبيبة وبشري الغالية.

هذه الخصائص الطبيعية لبشري لازمت خيال جبران طول حياته، فطبيعة وموقع بشري الصوفي جعلته يتصوف من دون وعي منه، إذ كتب إلى ماري هاسكل يقول: "ما الطبيعة إلا جسد الله، شكل

[1]– جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته العربية، ص364.

[2]– بولس طوق، شخصية جبران في أبعادها التكوينية والحياتية المكونات الأولية، ص48.

[3]– حبيب مسعود، جبران حيا وميتا، دار الريحاني، بيروت، لبنان، د ط، 1986م، ص495.

الله، والله هو ما أنشده، وما أحب أن أتفهمه"[1]، فإذا أراد الإنسان أن يبلغ الحق والجمال والمعرفة التي لن تبيد عليه أن يحاكي الطبيعة ويجعلها نفسه وقلبه، وهذا ما فعله جبران فكانت الطبيعة في عقله الباطن هي عديل المسيح[2].

[1]- توفيق صايغ، أضواء جديدة على جبران، الدار الشرقية، 1966، ص126.

[2]- ينظر: غازي براكس، جبران خليل جبران في دراسة تحليلية تركيبية لأدبه ورسمه وشخصيته، دار الكتاب اللبناني، بيروت، د ط، 1981م، ص192.

3 – المحيط العائلي لجبران:

في أسرة بشراوية محافظة متوسطة الحال، معتمدة في عيشها على مواردها الزراعية، ولد جبران خليل جبران العبقرية الخالدة التي تجاوز صيتها حدود الزمان والمكان "وكان لها تحت كل كوكب مملكة وسلطان. نطقت بالكلمة فرددها الكون بكل لغة ولسان"[1]، في السادس من كانون الأول سنة 1883 من اقتران خليل جبران بكاملة رحمة، اللذان كان لهما تأثير مباشر في صنع شخصيته وبلورتها، يقول جبران: "... ثلاثة لهم الفضل الأكبر في حياتي... والدتي، بإطلاقها لي الحرية، وأنت (ماري هاسكل) بإيمانك بي وبعملي، ووالدي الذي أيقظ فيّ روح المقاتل (المجاهد)"[2].

* الجد:

كان جد جبران والد أمه كاهنا مارونيا يسمى اسطفانوس عبد القادر رحمة، وكثيرا ما كان هذا سبب سروره ومفخرة له، فقد بعث برسالة إلى مي زيادة يقول فيها "أنا ابن كاهن ماروني!! نعم فقد كان جدي والد أمي كاهنا متعمقا بالأسرار اللاهوتية"[3]، ويجيد عدة لغات كالإغريقية والسريانية واللاتينية والفرنسية والإيطالية والعربية، ويتقن الحساب.

عُرف بحسن صوته وجمال سريرته، فقد كان طيب الخُلق ، وديع، حسن التعامل مع كل الناس لا سيما مع أولاده السبعة: أربعة ذكور وثلاث إناث، الذكور هم: نخلة، وردان، حبيب الملقب بأبو هبة، والرابع غير معروف اسمه لموته المبكر، أما الإناث فهن: سعيدة، جميلة، وكاملة أصغر الجميع، وأحبهم إلى

[1]– جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران نصوص خارج المجموعة، جمع وتقديم أنطوان القوال، دار الجيل، بيروت، ط1، 1994م، ص15.

[2]– بولس طوق، شخصية جبران في أبعادها التكوينية والحياتية المكونات الأولية، ص67.

[3]– سلمى الحفار الكزبري وسهيل بشروئي، الشعلة الزرقاء– رسائل جبران خليل جبران إلى مي زيادة، مؤسسة نوفل، بيروت، لبنان، ط2، 1984م، ص14.

قلبه وأشدهم شبها به يقول جبران: "وقد كانت أمي أحب أبنائه إليه وأشبههم به"[1]، حتى قيل أنه ذات مرّة غابت عن المنزل لمدة من الزمن، فلم يستطع أن يتحمل عدم رؤيتها فطلب منها الرجوع، فهي قلبه الذي يُدب الحياة في جسمه، وعينه التي يرى بها النور.

كان جده يشغل رتبة كاهن ثم رقيّ إلى خوري أسقف، ورث عن والده أملاكا كثيرة، الأمر الذي جعله ينصرف إلى طلب العلم وخدمة الغير بدلا من الركض وراء لقمة العيش، وقد تحدث عنه جبران في أحد قصصه الطفولية (النور والظلمة) قائلا: "في الجهة الغربية من بشراي بيت منفرد بين البساتين هو بيت اسطفانوس المحبوب جدا من رعيته. كان رجلا صالحا وأبا موقرا من العموم لأن الصفات الرجولية مستكملة فيه، فوقار الناس كان مبدأه لا الذقن الطويلة والجبة السوداء!"[2].

تلمس (اسطفانوس) في جبران النجابة والذكاء منذ صغره، فقربه إليه وكان أحب أحفاده إلى قلبه، وعمل على تلقينه بعض المبادئ الدينية والدنيوية، فغرس فيه حب الله ويسوع، وجعله يتمسك بكل التقاليد و العادات الدينية، إذ كان جبران يجمع باقة من الأزهار كل جمعة ليضعها عند المذبح، وكثيرا ما كان يقف أمام يسوع المصلوب متأملا سارحا بأفكاره متأثرا بتعاليمه، هذا من جهة، ومن جهة أخرى حرص أشد الحرص على صقل مواهبه وقدراته وتنبأ له بعبقرية لم يعرف الزمان مثلها.

أُعجب جبران بجده إعجابا شديدا واتخذه مثلا أعلى له، يزوره كلما سمحت له الفرصة لينهل من معرفته، ويتمتع بالسحر الطبيعي المحيط بالكنيسة، فعشق الناي وتغنى به ورده في كل كتاباته، وأحب

[1]- سلمى الحفار الكزبري وسهيل بشروئي، الشعلة الزرقاء- رسائل جبران خليل جبران إلى مي زيادة ، ص14.

[2]- جميل جبر، جبران خليل جبران في حياته العاصفة، ص09.

الموسيقى الكنائسية وغير الكنائسية مثل جده، حتى كانت بواكير كتاباته مقال عن الموسيقى أصدره عام 1905 في نيويورك "يتميز بسهولة التعبير، وحلاوة التلوين، ولطافة الوقع، وصدق النيّة، وسلامة الذوق، وعمق الإحساس، والنزعة إلى الإبداع في الوصف والتشبيه"[1].

كان(اسطفانوس) أحد أكبر كهنة بشري، لكن الباحث في تاريخ المنطقة لا يجد ذكرا لاسمه برتبته خور أسقف، وهذا راجع إلى أن الكنيسة المارونية أنزلت "... الحرم الكنسي بجده (لجبران) الخوري أسطفان رحمة إثر عقده زواجا لم يرض عنه بعض أعيان بشري. أما المعنيان فكانا وردان عيسى الخوري وجميلة حنا الظاهر. وكانت الإشبينة والدة جبران. وسبب الطعن في زواجهما اتهام العروس بأنها كانت سكرى، إذ عقد القران يوم –خميس السكارى– (أي خميس الأسرار أو خميس الغسل كنسيا) وبقيت جميلة الظاهر منفصلة عن زوجها اثنتي عشرة سنة قبل أن يعترف بزواجها بصورة نهائية رسمية"[2]، فرضي اسطفانوس بحكم الكنيسة وبتعليق كهنوتيته متجلدا بالصبر، متمسكا بتعاليم الإنجيل، أما جبران فقد أثرت فيه هذه الحادثة فازداد تعلقه بجده وتضاعف كرهه ومقته للكهنة.

أما جده والد أبيه فقد كان رجلا قوي العضلات، قاس، خشن في معاملاته، متغاو برجولته وبنيته، لم يحبه جبران يوما بسبب جبروته على الرغم من محاولات الجد الكثيرة لجذبه إليه، غير أن جبران بطبيعته الحساسة المرهفة مال إلى جده اسطفانوس ونفر من جده الآخر.

[1]– جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته العربية، ص06.

[2]– بولس طوق، شخصية جبران في أبعادها التكوينية والحياتية المكونات الأولية، ص87.

كان جده ثريا يملك أراض كثيرة وأملاكا واسعة، فنصف قرية مرجحين التي تبذر 500 مدّ قمح كانت ملكا له، لديه ولدان عيد وخليل، وكثيرا ما آثر خليل على أخيه السكّير لأنه كان يساعده في بقوة جسمه، وعمل على التقرب من كبار البلدة آنذاك وخاصة آل الظاهر، فيحضر مجالسهم ومنادماتهم إشباعا لرغبة دفينة في نفسه، وطمعا في نيل مكاسب منهم، وبالفعل فوظيفة عدّ الماعز حصل عليها بفضل علاقته بهم، وهي وظيفة " تتطلب من خليل العمل ابتداء من أوائل شهر نيسان وحتى أواخر تشرين الأول، تلك المدة التي تمثل فصلي الربيع والصيف في جبال لبنان، إذ تنحسر الثلوج عن الجبال، (...) ولا تتطلب كذلك أكثر من جولة أو جولتين (...) تستغرق كل منهما أسبوعا تقريبا"[1]، وبذلك تمكن خليل من كسب قوته براتب من الدولة، يوفر له الوقت للمجالسة عوض الوقوف طول اليوم في الدكان مقابل شيء قليل جدا.

كان (خليل) في متجر نسيبه (إسحاق جبران) وهناك التقى بـ (كاملة رحمة) التي أتت لتبتاع مرهما، فأعجبت هي بأناقته وبنيته، وهو كان معجبا بصوتها من قبل، فعشقتها أذناه قبل عيناه، ودبّ شعور بينها جعلهما يتزوجان وعمره سبعة وثلاثون سنة، أما هي فكانت في السابعة والعشرين، رزقهم الله بجبران الذي أسماه على اسم جده، وكان يوم مولده يوما مميزا، فرح فيه خليل إلى درجة النشوة[2]ثم رزقا بمريانا وسلطانة.

[1]- بولس طوق، شخصية جبران في أبعادها التكوينية والحياتية المكونات الأولية المرجع، ص70.

[2]- ينظر: ميخائيل نعيمة، جبران خليل جبران حياته- موته- أدبه- فنه، مؤسسة نوفل، بيروت، لبنان، ط9، 1981، ص24.

عمل (خليل) على تربية ابنه جبران تربية جيدة، فكان يصطحبه في الصيف إلى جرود مرجحين، ويناما تحت الخيام ليقوى جسده وطبعه، ويحبب الأرض إليه فيحرثها ويبذرها، لكن جبران الصبي كان مولعا بالرسم والكتابة والفن، مما جعل أباه يغتاظ منه كلما حدثه عن رغبته، فكان خليل ينهره كلما رأى ورقة في يده ناعتا ما يرسمه بالخربشات، كما أنه ضربه ضربا مبرحا لأنه رسم (راجي بك الظاهر) بهيئة مضحكة، وفي أحد الأيام أقام خليل مأدبة عشاء تكريما لابنه حضرها (سليم الظاهر) وسيدة تهوى الشعر، وطلبا منه قراءة بعض القصائد التي كتبها فقال والده: "لا أعتقد أن أصدقاءنا تهمهم هذه الأشياء"[1] لكن جبران أخرج القصيدة من جيبه وشرع في تلاوتها، فأعجبوا بها أما والده فقال: "آمل ألا يكون بعد اليوم مثل هذا الهذيان"[2]، فحزّت هذه العبارة في قلب جبران وطعنته في الصميم، وأيقظت فيه روح التحدي والمثابرة.

لم يكن (خليل) يوما من المحفزين لجبران في مساره الفني والأدبي، بل كل تصرف كان يقوم به وكل كلمة كان يوجهها له تدل على عدم رغبته في سير ولده في هذه الطريق، لذا كان يفضل بطرس ابن زوجته على ولده جبران، لأن بطرس كان صلبا قويا يساعده في الأرض ويطيع أوامره، يقول جبران: "أحب أبي بطرس حبا جما أكثر من حبه إياي. وكان يحب أمي حبا حقا وكانت هي معجبة به وتحبه. لكن ثمة فجوة صمت قامت بينهما سببها عدم التفاهم، وكان طبعه سلطويا فظا، احترمته لقدرته البدنية وسمو أخلاقه واستقامته"[3].

[1]- جميل جبر، جبران خليل جبران في حياته العاصفة، ص33.

[2]- المرجع نفسه، ص33 .

[3]- المرجع نفسه، ص11.

كان (خليل) يكلف شخصا يعرفه بمهمة الجباية مقابل بعض المال، فما كان من هذا الأخير بعد أن جمع الرسوم إلا أن فرّ بها واختبأ في مكان لا يطاله فيه أحد، فاتهم خليل بتهمة اختلاس أموال الضريبة، واستدعي للمحاكمة، واستمرت الدعوى مدة ثلاث سنوات، انتهت بثبوت التهمة على خليل وسجنه، ومصادرة أملاكه وبيوته، فتبدد النعيم الذي كانت تعيش فيه كاملة وأبناءها ووجدت نفسها ضيفة على الحكومة.

انطبعت هذه الحادثة في ذهن جبران ولازمته طول حياته، فظل يتذكر بكثير من الألم والسوء ذلك اليوم الذي اجتمع فيه الناس حول بيتهم ليشاهدوا قوات الأمن تحتجز أملاكهم وتكبل أباه لتقوده إلى السجن، فتشردت العائلة ووقعت في محن كبيرة جعلتها ترى الهجرة إلى أمريكا حلا لها، ويبدو أن جبران يحمِّل أباه مسؤولية ما حدث لهم بسبب استهتاره، كما أنه اعترف لماري هاسكل بأن تصرفات والده هي التي رسمت خطوط حياته بهذا الشكل.

بقي (خليل) بعد خروجه من السجن في بشري طامعا باسترجاع أملاكه وعودة عائلته يوما ما، ولكن انتظاره طال ولم يسمع من أسرته إلا أخبار الموت يأخذهم واحدا تلو الآخر، ففي البداية توفيت سلطانة ثم لحقها بطرس ثم زوجته كاملة، فساءت حالته جدا والرسالة التي بعث بها(سليم حنا الظاهر) إلى جبران خير دليل على ذلك، إذ كتب فيها "... أما أبوك الحزين فحدّث عن سوء حاله ولا حرج، فقد أضحى رجلا في صورة الرجال ولكن في الحقيقة وحال المعيشة هو كالخيال... أما من كان مثل والدك كهلا بعيدا عن ذويه فأنت أدرى بما يخاطب به بعد فقده قسما ممن كانوا أعز الناس لديه وهو محروم من مشاهدة القسم الباقي فهو لا يفهم غير معنى حضوركم إليه... ولقد كان على قدم السفر

إليك لو لم يؤخره تحريرك القائل أنكم ستحضرون قريبا كارهين أرضا وجدتم فيها كل مصائب الدنيا... والحاصل أن أباك وعمك في حال يرثى لها فارحموهما يرحم الله من فقدتم"[1].

توفي (خليل) سنة 1909 أعمى وهو ينتظر أخبارا عن ولديه، في بيته وحيدا بائسا محروما من رؤية فلذات كبده.

* **الأم: "كاملة رحمة".**

إن الأم شاعرة بالفطرة وأول قصيدة تلفظها هي طفلها حين يصرخ أول صرخة له، ثم حين يلفظ أعذب كلمة في الوجود وينادي يا أمي "كلمة صغيرة كبيرة مملوءة بالأمل والحب والانعطاف وكل ما في القلب البشري من الرقة والحلاوة والعذوبة. الأم هي كل شيء في هذه الحياة: هي التعزية في الحزن، والرجاء في اليأس، والقوة في الضعف، هي ينبوع الحنو والرأفة والشفقة والغفران"[2]، وأعظم قصيدة للأم (كاملة رحمة) هي تلك التي لم تدونها ولم تلفظها بشفتيها بل تدفقت وفاضت على لسان ابنها جبران.

ولدت (كاملة) رحمة في بشري سنة 1854، والدها هو الكاهن اسطفانوس عبد القادر سمعان رحمة الذي سبق الحديث عنه، امتازت كاملة بالذكاء والحيوية والجاذبية فشغلت مكانا مميزا في قلب أبيها، أحبت الطرب وأجادت العزف على العود، وورثت عن أبيها حسن الصوت، فكانت تغني بصوتها الشجي في الأعياد الدينية فيحبها كل من يسمعها حتى إن بعض الدارسين أرجعوا زواجها بخليل جبران إلى حسن صوتها.

[1]- بولس طوق، شخصية جبران في أبعادها التكوينية والحياتية المكونات الأولية، ص83.

[2]- جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته العربية، ص126.

حين بلغت التاسعة عشر من عمرها أصرّت على دخول دير (القديس سمعان) للراهبات الكائن في ضواحي بشري، فجمعت المال لتقدمه نذرا، وجهزت نفسها للانضمام إلى سلك الرهبنة، لكن أبويها عارضا رغبتها ومنعاها من دخوله، وفي تلك الفترة تقدم إليها نسيبها (حنا عبد السلام رحمة) وطلب يدها فرضيت به وتزوجا، ثم سافرت برفقته إلى البرازيل ورزقت منه ببطرس، غير أن إقامتها هناك لم تطل فتوفي زوجها وحزمت حقائبها رفقة ابنها عائدة إلى لبنان.

عاشت (كاملة) عند والدها تحت مراقبة ونقد مجتمعها الذي ينظر نظرة النقص إلى الأرملة، لا سيما وأنها عادت بأفكار تحررية ومفاهيم جديدة عن المرأة من إقامتها في البرازيل، فلم تجد طريقة تخلصها من ملاحقة أعين الناس لها إلا بالزواج مرة ثانية، فتزوجت من (يوسف إلياس جعجع) إلا أن زواجهما لم يستمر أكثر من أسبوعين، إذ تطلقا بطلب من كاملة، وقبل أن تحصل على الطلاق تزوجت كاملة من خليل جبران، فحدثت ضجة كبيرة في مجتمع بشري وبدأ الناس يتغامزون عليها، ولتثبت كاملة براءتها أخرت حبلها من خليل عن قصد ولم تنجب ابنها البكر من قرانها الجديد إلا بعد سنتين[1].

كانت (كاملة) أما حنونة عطوفة، وصديقة متفهمة مخلصة، وشقيقة ناصحة مرشدة، وحبيبة ودودة، تعلق بها جبران واتخذها قدوة حتى أنه كتب إلى مي قائلا: "ورثت عن أمي تسعين بالمائة من أخلاقي وميولي (لا أقصد بذلك أنني أماثلها من حيث الحلاوة والوداعة وكبر القلب)"[2] بل من حيث الغرابة والطموح، فأمه هي الوحيدة التي فهمته منذ نعومة أظافره، يقول جبران: "أمي وحدها عرفت هذا الصبي الغريب —كنت بركانا صغيرا– بل زلزالا صغيرا ما كنت صبيا طيبا لأني كنت قلقا. كنت أشعر أني

[1]– ينظر: بولس طوق، شخصية جبران في أبعادها التكوينية والحياتية المكونات الأولية، ص ص93-94.

[2]– سلمى الحفار الكزبري وسهيل بشروئي، الشعلة الزرقاء– رسائل جبران خليل جبران إلى مي زيادة، ص14.

غريب ضائع لا أستطيع أن أجد طريقي لكن أمي عرفت ذلك دون أن أحدثها"[1]، وآمنت بمواهبه ونبوغه وتوسمت فيه شخصية مرموقة في المستقبل.

تميزت (كاملة) برجاحة العقل وثبات الجنان وبمعرفة دينية واسعة عملت على تلقينها لابنها من خلال اصطحابها له إلى الكنيسة ليسمع التراتيل والأناشيد الدينية التي تقام في أسبوع الآلام، فأنفذت صورة المسيح المعذب في قلبه، وتعلق بشخص يسوع الناصري المصلوب الذي صار محورا ذهنيا لنظرته إلى نفسه وإلى لبنان وإلى العالم، كما عملت على تنمية خياله وصقل ذوقه الفني، فكانت تُغني له الأغاني وتقص عليه القِصص والحكايات الشعبية وخاصة حكاية حياة الناصري، فشبّ جبران على حبّ يسوع وفاض قلبه بالإيمان، وبذلك كانت أمه جذرا من جذور نزعته الصوفية لا سيما وأنها "من أولئك اللبنانيات ذوات الشخصية القوية، اللواتي يؤثرن في أولادهن أثرا عميقا يجاوز أثر الآباء، ويرافق الأبناء في جميع مظاهر حياتهم"[2]، فهي المنبع الذي غذى موهبته وحدسه الصوفي "فكي يكون الإنسان فنانا، كي يرى الغير بعين ثالثة، كي يسحر بجمال الطبيعة عليه أن يعرف أمه ويعرفها جيدا"[3].

إلى جانب ذلك، فقد كانت (كاملة) امرأة فطنة تحسن إدارة شؤون بيتها، وفيّة مخلصة لزوجها لم تُدر له ظهرها عندما كان سجينا بل بقيت مدة ثلاث سنوات تكابد قساوة العيش وتقوم بدوري الأب والأم لأبنائها، تنتظر خروج خليل مقدمة له يد المساعدة بحسب قدرتها، وحين خرج مكثت معه سنة كاملة، ثم قررت الرحيل برضاه ورغبته رفقة أولادها إلى أمريكا لتحسين مستواهم.

[1]- جميل جبر، جبران في عصره وآثاره الأدبية والفنية، ص32.

[2]- بولس طوق، شخصية جبران في أبعادها التكوينية والحياتية المكونات الأولية، ص 96.

[3]- جميل جبر، جبران في عصره وآثاره الأدبية والفنية، ص33.

تابعت (كاملة) تنشئة ابنها جبران لحظة بلحظة، فلما كان في أمريكا لاحظت بأن تصرفاته تغيرت، وبدأ يبتعد عن الجو الديني الماروني ويتأثر بالروح البروتستانتية ويقع تحت تأثير اللذة في المجتمع الرفيع، فجمعت بعض المال وأرسلته إلى لبنان ليلتحق بالمدرسة التي حلم بها ويتعلم اللغة العربية ويوثق جذور نزعته الدينية الروحية، لذا يقول جبران: "لا أذكر أن والدتي قدمت لي طعاما أو غسلت ثيابا أو... أو... إنما أمومتها لي هي ما أذكر أمومتها لذاتي الباطنية"[1].

عاشت (كاملة رحمة) رفقة أولادها حياة قاسية جدا، بيت رطب، عمل متعب، ودخل قليل، وفوق كل ذلك ألمّ بعائلتها المرض فاختطف منها(سُلطانة)ثم(بُطرس)، الأمر الذي جعلها تشعر بضيق شديد وتندم على عدم دخولها إلى الدير، فيروي لنا جبران حديثا دار بينه وبينها يقول: "أذكر قولها لي مرة، وقد كنت في العشرين: لو دخلت الدير لكان أفضل لي وللناس، فقلت لها: لو دخلت الدير لما جئت أنا، فأجابت: أنت مقدّر يا بني، فقلت: نعم، ولكن قد اخترتك أما لي قبل أن أجيء بزمن بعيد، فقالت: لو لم تجئ لبقيت ملاكا في السماء، فقلت: لم أزل ملاكا! فتبسمت وقالت: أين جوانحك؟ فوضعت يدها على كتفي قائلا: هنا، فقالت: متكسرة! وبعد هذا الحديث بتسعة أشهر ذهبت أمي إلى ما وراء الأفق الأزرق"[2].

توفيت (كاملة) متأثرة بمرضها في بوسطن، وتركت فراغا كبيرا وفجوة عميقة في قلب جبران، فهي لم تكن أما له فقط، بل كانت قرينته وصديقته وموحيته الأولى، أحبها إلى درجة العبادة، ولم يتقبل غيابها عنه فظل يبحث عن وجهها في وجوه كل صديقاته اللواتي أحبهن وكن أكبر منه سنا ك(حلا الظاهر)

[1]- جميل جبر، جبران في عصره وآثاره الأدبية والفنية، ص12.

[2]- سلمى الحفار الكزبري وسهيل بشروئي، الشعلة الزرقاء- رسائل جبران خليل جبران إلى مي زيادة، ص15.

و(سلطانة ثابت) و(جوزفين بيبودي) و(ماري هاسكل) التي قال لها: "سرت وراءك كطفل يلاحق أمه... سنة فقدت أمي وجدتك في حياتي. أتعرفين ما معنى الشعور بأني ولد لقيط؟... لعلني أستطيع يوما أن أقدم لك أزهار وثمار حبك وحنانك الأمومي... إنك تمنحيني الحياة حقا يا ماري... لقد أعطيتني الحياة بمعناها الحرفي... لا أشعر بأنني ضيف محبوب بل كأنني طفل في بيت أمي... يا أم قلبي المحبوبة المحبة"[1].

لم ير جبران وجه أمه من خلال وجوه صديقاته فقط، بل في كل ما يحيط به، فالطبيعة أمه، والأمة أمه، فالأم هي كل شيء هي الروح الأبدية الخالدة المملوءة بالمحبة والجمال، والخالق هو أم، يقول جبران: "أكثر الأديان تتكلم عن الله بصيغة المذكر وعندي أن الله أم مثلما هو أب، بل هو أب وأم معا والمرأة في نظري هي مثال الله الأم. قد يدرك الله الأب بالعقل أو بالخيال أما السبيل إلى الله الأم فهو الحبّ"[2].

بقيت لفظة (الأم)تختبئ في قلب جبران وتنبثق من شفتيه كلما أحس بالحزن أو الفرح، فالعلاقة التي جمعت بين كاملة وجبران ليست علاقة أم بابنها بل علاقة صديق بصديقه، علاقة حب متبادل بين شخصين، لم يتمكن جبران من قطع أوصاله، فحرص على أن يحتفظ بكل أغراض أمه حتى تلك التي كانت في بشري، إذ بعث برسالة إلى نسيبه (نخلة جبران) قائلا: "... أما من جهة الأمتعة التي وجدتها

[1]- جميل جبر، جبران في عصره وآثاره الأدبية والفنية، ص34.

[2]- جميل جبر، جبران في عصره وآثاره الأدبية والفنية ، ص34.

.

في صندوق المرحومة والدتي فهي مع كونها بدون قيمة كبيرة، وليس بينها شيء ثمين، أريد من صميم قلبي أن أحصل عليها لأنها مما تركته والدتي التي أقدس ذكراها وأحترم آثارها"[1].

عاشت (كاملة) حياة مليئة بالأحداث، ورحلت تاركة خلفها ابنها جبران قصيدتها العظيمة، أليس هو القائل: "الأنشودة الكامنة في صمت قلب الأم تتردد على شفتيّ"[2].

[1]- حبيب مسعود، جبران حيا وميتا، ص503.

[2]- جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته المعربة عن الانجليزية، تعريب الأرشمندريت أنطونيوس بشير، دار صادر، بيروت، 1964م، ص165.

4- الاستعداد الذاتي:

ولد جبران في منزل محافظ نما فيه وترعرع على صوت المزامير والأناشيد الدينية كما سبق الذكر، فُطر على الصدق والأمانة، والرفق بالإنسان، والإيمان بكرامته، والمساواة بين الجميع على اختلاف لغاتهم وأديانهم.

مال إلى التأمل منذ نعومة أظافره، عُرف بكثرة طرحه للأسئلة ورغبته الشديدة في معرفة أسرار ذاته وأسرار الكون فيقول: "لم يكن لي طوال عشرين سنة إلا ذاك الجوع الضاغط، وذاك الظمأ الحارق إلى ما لا أعرفه"[1]، فلم يقنع يوما بما حصل عليه، بل كان دائم القلق والتأمل فيما حوله.

عاش جبران حياة قاسية ملأها الألم والحزن والكآبة، جعلته منذ حداثة سنه يميل إلى الممارسات الدينية، والانعزال عن الناس والترفع عن تفاهات الأمور ومادية الحياة، ففي قصة الأجنحة المتكسرة يتحدث عن الكآبة التي رافقته كأنها ظله منذ صباه فيقول: "أما تلك الكآبة التي أتعبت أيام حداثتي فلم تكن ناتجة عن حاجتي إلى الملاهي لأنها كانت متوفرة لدي، ولا عن افتقاري إلى الرفاق لأنني كنت أجدهم أينما ذهبت، بل هي من أعراض علة طبيعية في النفس كانت تحبب إلي الوحدة والإنفراد، وتميت في روحي الميول إلى الملاهي والألعاب، وتخلع عن كتفي أجنحة الصبا، وتجعلني أمام الوجود كحوض مياه بين الجبال يعكس بهدوئه المحزن رسوم الأشباح وألوان الغيوم وخطوط الأغصان ولكنه لا يجد ممرا يسير

[1]- غسّان خالد، جبران الفيلسوف شخصية العبقري في منافذ خلاصها النقد الاجتماعي والبنية الفردوسية جدلية الإنسان والألوهة، مؤسسة نوفل، بيروت، ط2، 1983م، ص95.

فيه جدولا مترنما إلى البحر"[1]، فكآبته صارت سمة طبيعية عنده، لا تثير فيه القلق أو الخوف، بل هي ظاهرة يدركها ويفهمها، علّمته تاريخ البشر وشرائعهم وتقاليدهم، وأوقفته متأملا في هذا العالم الفسيح.

كان جبران يتلذذ بالابتعاد عن الناس والعكوف على عالمه الروحي، فيجد في ذلك راحة وطمأنينة تفتح نفسه وتصفي فكره، فيصل إلى أشياء يستحيل أن يصل إليها وهو مع الناس فيقول: "أفضل ما أستطيع فعله هو ما أفعله وأنا وحيد، إن المرء يكون قريبا إلى كل إنسان عندما لا يكون قريبا إلى أي إنسان"[2] فالوحدة شعور مال إليه جبران ورأى أنها هي التي تحقق ذاته "ولولا الوحدة لما كنت أنت أنت وأنا أنا"[3].

استعذب جبران الوحدة التي طبعت نفسه ومنحته فرصة الاتصال بالعالم العلوي والاستماع إلى صوت الغيب والوصول إلى المعرفة اليقينية الأبدية فيقول: "تمر بي أوقات أكون فيها في عالم آخر... في عالم من الشعر... أو في جزيرة بعيدة عن عالم الواقع. في هذه الجزيرة أكون متنبها، مدركا، غارقا في حياة غير محسوسة، ربما في الجمال أو الفرح أو العذاب أو الشناعة... وعندما أعود إلى عالم الواقع أحاول أن أخبر ما حققت هناك"[4]، فهو يعتزل الناس وعندما تمتلئ نفسه بالمعارف والرؤى يعود إليهم ليخبرهم بها لهدايتهم وإصلاح أمورهم، وكأني به يعيش تجربة صوفية حقيقية.

[1]- جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته العربية، ص103.
[2]- توفيق صايغ، أضواء جديدة على جبران، ص155.
[3]- مها خير بك ناصر، جبران أصالة وحداثة، ص14.
[4]- جميل جبر، جبران في عصره وآثاره الأدبية والفنية، ص48.

لم يعبر جبران عن هذه الوحدة وهو طفل بالكلام بل بالرسم، فيفجر مشاعره ورغباته خطوطا وأشكالا غريبة، وحين كبر تحدث عنها نثرا وشعرا وحتى ممارسة، إذ عزل نفسه عن الناس في بيته الذي أسماه بالصومعة وجعل الشمعدانات والصليب من صلب محتوياته ليس كقطع أثاث بل كرموز دينية يتأملها، ثم لم تعد تكفه هذه الصومعة ولم تعد تروِي ظمأه، فبدأ يشعر بحاجته إلى عزلة على سفوح جبال لبنان قرب دير مارسركيس، ويتمنى لو تتاح له فرصة العودة إلى ذلك المكان المقدس ويرافقه فيه صديقه ميخائيل نعيمة إذ يقول له في أحد الرسائل التي بعثها إليه: "أقول، يا ميخائيل، إن المستقبل سيجدنا في صومعة قائمة على كتف واد من أودية لبنان. إن هذه المدينة الغشاشة قد شدت أوتار روحينا حتى كادت تنقطع، فعلينا أن نرحل قبل أن تنقطع. ولكن علينا أن نبقى صابرين متجلدين حتى يوم الرحيل علينا أن نصبر يا ميشا... هناك سنعتزل العالم يا ميشا، ونحلم ما طاب لنا أن نحلم، وسنكتب ما شئنا أن نكتب"[1]، فجبران لا يشعر أنه حر وطليق إلا في غابات لبنان وبعيدا عن كل الناس، لأنه هكذا يحس أنه أكبر قدرا وقيمة، والجميع يحاولون التقرب منه كأنه ولي صالح أو نبي مرسل، ويفسر جبران جنوحه إلى الوحدة والعزلة التي رأى فيها ملاذا وطريقا للخلاص بقوله: "إن النفس الكئيبة تجد راحتها في العزلة والإنفراد، فتهجر الناس مثلما يبتعد الغزال الجريح عن سربه ويتوارى في كهفه حتى يبرأ أو يموت"[2].

لم تكن الوحدة فقط هي ما ميز حياة جبران، بل هناك شعور آخر هو الغربة أحس بها منذ حداثته فوجد نفسه غريبة عن هذا العالم، وأفكاره وتصرفاته فريدة جعلت منه شخصا مجهولا لم يتمكن

[1]- جبران خليل جبران، رسائل جبران، دار تلانتيقيت، الجزائر، د ط، د ت، ص 74.

[2]- جميل جبر، جبران في عصره وآثاره الأدبية والفنية، ص90.

أي أحد من فهمه باستثناء أمه (كاملة)، فالأرض التي يمشي عليها غريبة عنه، والناس الذين يعيشون معه غرباء لا يتكلمون بمثل لغته ولا يفهمون إيماءاته فيقول: "أشعر كأني غريب عندما أكون مع الآخرين حتى أولئك الذين يهمني أمرهم"[1].

لم يجد جبران مخرجا يخلصه من غربته هذه إلا اللجوء إلى الغاب إلى الطبيعة البكر، إلى الأرض الفسيحة الطاهرة، لذلك نراه في أغلب كتاباته يتحدث عن عناصر الطبيعة التي ترمز إلى الكآبة والوحشة والوحدة، فالليل مثلا بأشباحه ورهبته وسكينته كان أحبّ الرموز إلى قلبه فيقول على سبيل المثال لا الحصر:

"يا ليل العشاق والشعراء والمنشدين

يا ليل الأشباح والأرواح والأخيلة

يا ليل الشوق والصبابة والتذكار

أنت عادل تجمع بين جنحي الكرى أحلام الضعفاء بأماني الأقوياء، وأنت شفوق يغمض بأصابعه الخفية أجفان التعساء ويحمل قلوبهم إلى عالم أقل قساوة من هذا العالم.

بين طيات أثوابك السوداء يسكب المحبون أنفاسهم، وعلى قدميك المغلفتين بقطر الندى يهرق المستوحشون قطرات دموعهم، وفي راحتيك المعطرتين بطيب الأدوية يضيع الغرباء تنهدات شوقهم

[1]- جميل جبر، جبران خليل جبران في حياته العاصفة، ص125.

وحنينهم. فأنت نديم المحبين وأنيس المستوحدين، ورفيق الغرباء والمستوحشين"[1] وبذلك يخاطب جبران الليل فيتجاوب معه كاشفا له أسراره.

كما سئم جبران هذا العالم الإقطاعي وحاول جاهدا أن يكسر هذه القيود التي كبلت الإنسان وأعاقت تحركاته، فثار على الفساد وحارب الجهل والعبودية، ودعا إلى الحرية والمساواة والعدل من خلال الرجوع إلى القانون الكلي إلى الطبيعة، والتخلي عن القوانين والنواميس التي ابتدعها البشر "فأمام عرش الحرية تفرح هذه الأشجار بمداعبة النسيم، وأمام هيبتها تبتهج بشعاع الشمس والقمر، على مسامع هذه الحرية تتناجى هذه العصافير وحول أذيالها ترفرف بقرب السواقي. في فضاء الحرية تسكب هذه الزهور عطر أنفاسها، وأمام عينيها تبتسم لمجيء الصباح، كل ما في الأرض يحيا بناموس طبيعته، ومن طبيعة ناموسه يستمد مجد الحرية وأفراحها. أما البشر فمحرومون من هذه النعمة، لأنهم وضعوا لأرواحهم الإلهية شريعة عالمية محدودة وسنوا لأجسادهم ونفوسهم قانونا واحدا قاسيا، وأقاموا لميولهم ولمواطنهم سجنا ضيقا مخيفا"[2]، ففي الطبيعة عدل ومساواة وعفوية وبراءة، لا غش فيها ولا خداع ولا رياء، الحياة تسير فيها بميزان الله سبحانه وتعالى الكامل المنزه عن الخطأ الذي قسّم كل شيء بقدر.

ويواصل جبران جهوده فيسعى لهداية الناس إلى عالم مثالي من خلال كتابه النبي الذي وضع فيه زبدة فكره وروحه، وقد حاز هذا الكتاب على إعجاب الملايين لما فيه من حِكَم روحانية شرقية ورؤى فلسفية في الأخلاق والحياة، حتى قالت فيه إحدى الصحف الأمريكية: "هنا الحق في ثوب من الموسيقى

[1]- جبران خليل جبران، العواصف، المكتبة العالمية الجديدة، بيروت، لبنان، د ط، د ت، ص ص93-94.

[2]- جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته العربية، ص61.

والجمال والنزعة الكمالية"[1]، وقال عنه جبران: "إنه ديانتي وأقدس قدسيات حياتي، أتمنى لو أقرأه في إحدى الكنائس"[2]، وبالفعل تحققت أمنية جبران فأغلب أناشيد كتابه صارت اليوم تردد في الكنائس وكأنها تعاليم مقدسة، أما الحياة التي نادى بها في كتابه فقد جسدها في فتى الغاب في المواكب، فذلك الفتى إنسان فطري نقي لم يدنسه المجتمع ومدنيته المادية، يعيش في الغاب حرا طليقا مطمئنا، فرحا متمتعا بصفاء روحه وصحة جسده فـ:

لَيْسَ في الغَابَات حُزْنٌ لَا وَلَا فيهَا الهُمُوم

فَإِذَا هَبّ النَسيم لَا تَجيءُ مَعَهُ السُمُوم[3]

وبهذه الصفات التي تميز بها جبران استعد ذاتيا لتظهر عليه ميول صوفية نشرها في أغلب مؤلفاته.

[1]- ريموند قبعين، النزعة الروحية في أدب جبران ونعيمة، ص22.

[2]- جميل جبر، جبران خليل جبران في حياته العاصفة، ص210.

[3]- جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته العربية، ص203.

5- التكوين الثقافي:

تلقى جبران أُولى دروسه بمدرسة (مار اليشاع)في بشري، عُرِف فيها بذكاءه وفطنته واجتهاده، وتمرده على النظام، فلم يكن منضبطا في دراسته يحضر يوما ويغيب شهرا، ولما بلغ الخامسة عشرة من عمره التحق بمعهد(الحكمة) ببيروت ليتعلم اللغة العربية ويتقنها، مكث هناك ثلاث سنوات دراسية "كان خلالها، تلميذا حرّا متحررا، يحضر الدروس التي يختارها، محافظا على ميوله وعاداته، تاركا شعره الطويل من دون التقيد بموانع الإدارة وأنظمتها"[1].

تميز جبران في معهد (الحكمة) بقلة صبره على القراءة، فلم يتعلم إلا اللغتين العربية والفرنسية، ولم يدخل مدرسة أكاديمية أخرى، مما يدل على أنه اعتمد على نفسه في تكوين ثقافته، فـ "جبران كان تلميذ جبران نفسه، وتعلمه كان ذاتيا، حصل عليه بوفرة المطالعات الشخصية"[2]، مع العلم أنه لم يكن يطالع إلا ما يتماشى مع رغباته وميوله الروحانية الصوفية.

أ- الكتاب المقدس:

يعد الكتاب المقدس أول كتاب قرأه جبران خليل جبران، باعتبار أنه نشأ في أسرة محافظة، وتعلم على يدي رجال الدين وفقا للمناهج المدرسية القديمة "التي تعتبر دراسة التعليم المسيحي وقراءة المزامير أساس حياة الإنسان ومنتهاها"[3]، فتمعن جبران في معانيه، ورسخت تعاليمه في قلبه، ونقشت آياته في عقله، وصار يستلهمها كتابة ورسما، لذلك نراه يورد نصوصا حرفية منه وبخاصة في مجموعة (عرائس

[1]- بولس طوق، شخصية جبران في أبعادها التكوينية والحياتية تحولات المربع، دار نوبيليس، بيروت، ط1، 2000م، ص178.

[2]- ريموند قبعين، النزعة الروحية في أدب جبران ونعيمة، ص22.

[3]- غسّان خالد، جبران الفيلسوف، ص280.

المروج)، ويعبر عن محبته للناصري في كل كتاب، ففي قصتي (يوحنا المجنون) و(خليل الكافر) يهاجم الذين لا يفهمون رسالة المسيح ويحرفون أقواله، ويتمرد على رجال الدين الذين ظلموا الناس وأرهقوا كواهلهم بحجة تنفيذهم لتعاليم يسوع.

ويظهر تأثر جبران بالإنجيل واضحا في أغلب كتاباته التي اعتمد فيها على بعض الشكليات البيانية الخاصة به كأسلوب الوعظ والإرشاد، أو الإتيان بمثَل أو قصة قصيرة لشرح فكرة معينة، أو إدراج بعض أقوال الناصري كقوله في الأرواح المتمردة: "البيت الذي ينقسم على ذاته يخرب" و"كالمرائين الذين يكرزون بالفضيلة ولا يفعلون غير الشر"[1] و"مجانا أخذتم، مجانا أعطوا"[2] وغيرها كثير، أو تسمية المصطفى بالمعلم كما كان التلاميذ ينادون المسيح.

أضف إلى ذلك إلحاحه على جعل المحبة مبدأ للحياة الإنسانية المثالية، وهذا المبدأ هو أساس الديانة المسيحية، وما كتابه (يسوع بن الإنسان) إلا دليل على اهتمام جبران الكبير بشخصية يسوع الناصري، وقد قال عنه جان هينز هولمز John Heinz Holmes: "إن كان من أبناء آدم من يحق له القيام بهذا المشروع الخطير فهو جبران(...) مواطن ليسوع يصوره كما رآه مواطنوه"[3]، فجبران في هذا الكتاب يفسر الإنجيل وفقا لمفاهيمه دون التقيد بالتفسير اللاهوتي التقليدي فمال مع كل ريح ووقع في أخطاء كثيرة[4].

[1]- جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته العربية، ص95.

[2]- المصدر نفسه، ص90.

[3]- ريموند قبعين، النزعة الروحية في أدب جبران ونعيمة، ص ص24-25.

[4]- المرجع نفسه، ص24.

ب- الفكر الصوفي الإسلامي:

لم تُتَح لجبران في مطلع القرن العشرين فرصة التعلم في مدارس أكاديمية مختلفة ينهل منها شتى المعارف كما هو الحال اليوم، فالتعليم في وقته كان مقتصرا على قراءة الكتاب المقدس، وتمضية أربع سنوات في معهد الحكمة يأخذ منها الشيء القليل، غير أن إبداعات جبران لا تدل على ثقافة محدودة بل على بحر شاسع من المعرفة يقودنا إلى الجزم بأنه اعتمد على نفسه في تغذية فكره، إذ اطلع على كثير من المؤلفات العربية التي اعتز بها ورآها أعظم إنتاج على وجه الكون، فقرأ للإمام علي والمتنبي والمعري وابن خلدون وابن سينا والغزالي وابن الفارض وغيرهم كثير.

أَعجب جبران بابن سينا الفيلسوف الذي اشتغل بالفلسفة وانتهى إلى التصوف، فهو يعده نابغة زمانه وصل إلى ما لم يصل إليه الآخرون، وترجم علمه في قصيدته العظيمة في النفس التي استهوته لأنها توافق ميوله ومعتقداته، فيقول: "ليس بين ما نظمه الأقدمون قصيدة أدنى إلى معتقدي وأقرب إلى ميولي النفسية من قصيدة ابن سينا في النفس"[1]، ويسترسل جبران في تبيين سبب إعجابه بها وانجذابه إليها بقوله: "في هذه القصيدة النبيلة قد وضع الشيخ الرئيس أبعد ما يراود فكرة الإنسان وأعمق ما يلازم خياله من الأماني التي تولدها المعرفة، والسؤالات التي يثمرها الرجاء، والنظريات التي لا تصدر إلا عن التفكر المستمر والتأملات الطويلة (...) فكأني به قد بلغ خفايا الروح عن طريق المادة وأدرك مكنونات المعقولات بواسطة المرئيات، فجاءت قصيدته هذه برهانا نيّرا على أن العلم هو حياة العقل يتدرج

[1]- جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته العربية، ص318.

بصاحبه من الاختبارات العملية إلى النظريات العقلية، إلى الشعور الروحي، إلى الله"[1]، فحتى يدرك الإنسان المعرفة الأزلية عليه أن يبدأ بمعرفة المادة (جسده) التي تقوده إلى الإحاطة بخفايا النفس، وهذا ما فعله الشيخ ابن سينا فقد قضى عمره يبحث عن أسرار الأجسام ومزايا الهيولى لينتهي في آخر المطاف إلى النفس، فأدرك خفايا الروح عن طريق المادة.

فُتن جبران بشخصية ابن سينا، وبمفاهيمه حول الحدس والكشف والإشراق، وبرموزه التعبيرية، ففضله على غيره من الشعراء الذين نظموا في النفس كشكسبير وتشلي وغوطه وبراونن، وجعله متفوقا عليهم لأنه وضع في قصيدة واحدة ما جاؤوا به عبر أزمنة مختلفة، "وهذا ما (...) يجعل قصيدته في النفس أبعد وأشرف ما نظم في أشرف وأبعد موضوع"[2].

ولم يكن ابن سينا الفيلسوف الوحيد الذي أعجب به جبران، بل نراه معجبا أيضا بالإمام الغزالي الذي مارس الفقه واختص بدراسة العلوم المنقولة، ليستقر في آخر المطاف بين أحضان التصوف.

استهل جبران حديثه عن الغزالي بعقد مقارنة بينه وبين القديس أوغوسطينوس، فهما وجهان لمبدأ واحد هو "ميل وضعي في داخل النفس يتدرج بصاحبه من المرئيات وظواهرها إلى المعقولات فالفلسفة فالإلهيات"[3]، وكأن جبران حين يُعَين هذا التحول المعرفي عند الغزالي لا يكشف لنا عن تجربته فحسب، بل يعني ذلك منحى عام يسلكه أغلب المفكرين الذين يبحثون عن المعرفة الحقيقية اليقينية، عن كنه الحياة ومصدر الإنسان ومصيره.

[1]- جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته العربية، ص318.

[2]- المصدر نفسه، ص319.

[3]- جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته العربية ، ص321.

كان الغزالي أستاذا بجامعة المستنصرية في بغداد، يقصده طلبة العلم من كل حدب وصوب، ويستشيره الخلفاء والوزراء، ويأخذ برأيه الفقهاء، فهو يعيش استقرارا من كل النواحي، لكن روحه لم تكن مطمئنة بل مضطربة مشتعلة تبحث عن اليقين، فاعتزل الناس وزهد عن كل ملذات الدنيا ورحل إلى مكة لعله يصل إلى الحق فيعرف معنى الإنسان، فتوغل في "البحث عن تلك الخيوط الدقيقة التي تصل أواخر العلم بأوائل الدين، متعمقا في التفتيش عن ذلك الإناء الخفي الذي تمتزج فيه مدارك الناس واختباراتهم بعواطف الناس وأحلامهم"[1]، ليجد في نهاية المطاف ذلك الإناء في التصوف فهدأت روحه وثبت جنانه وامتلأ بنور الحق.

وعلى إثر المقارنة التي عقدها جبران بين الغزالي والقديس أوغسطينوس، ألفيناه يرجح آراء الأول على الثاني لأن الأول "كان أقرب إلى جواهر الأمور وأسرارها"[2] لما ورثه من الحضارات الهندية والفارسية واليونانية، أما الثاني فبقي أسير التقاليد الفكرية للكنيسة، كما أن الغزالي بحسب رأي جبران يشكل "حلقة ذهبية موصلة بين الذين تقدموه من متصوفي الهند والذين جاؤوا بعده من الإلهيين. ففي ما بلغت إليه أفكار البوذيين قديما شيء من ميول الغزالي، وفي ما كتبه سبينوزا ووليم بلايك حديثا شيء من عواطفه"[3].

[1]- المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .

[2]- الجبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته العربية، ص321.

[3]- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

وينهي جبران حديثه عن الغزالي بتبيان المكانة المرموقة التي يحتلها عند مستشرقي الغرب، فهو "أنبل وأسمى فكرة ظهرت في الإسلام"[1]، وصورته معلقة على جدران كنيسة في فلورنسا بإيطاليا بين صور غيره من الفلاسفة الكبار، بينما نحن الشرقيون لا نعرف عنه إلا القشور، وسبب ذلك أننا "لم نزل مشغولين بالأصداف كأن الأصداف هي كل ما يخرج من بحر الحياة إلى شواطئ الأيام والليالي"[2].

وإلى جانب ابن سينا والغزالي امتدح جبران ابن الفارض شاعر الحب الإلهي الذي وصل إلى النور الأعظم بعد أن اشتغل بعلوم الحديث والشريعة ،"فروحه الظمآنة تشرب من خمرة الروح فتسكر ثم تهيم سابحة، مرفرفة في عالم المحسوسات حيث تطوف أحلام الشعراء وميول العشاق وأماني المتصوفين. ثم يفاجئها الصحو فتعود إلى عالم المرئيات"[3] مُثقلة بمعارف ربانية لم يحلم بها الأولون ولم يبلغها المتأخرون.

لم ينشغل ابن الفارض بأحداث اليوم أو بالحياة وأسرارها وملذاتها، بل بعالمه الروحي فعزل نفسه ليعيش تجارب صوفية يعبر عنها بشعر خالد "يصل ما ظهر من الحياة بما خفي منها"[4] بلغة جميلة مؤثرة مرصعة بالبديع.

إن ذِكرنا لهؤلاء الفلاسفة لا يعني أن جبران قرأ لهم فقط، فمطالعاته كانت كثيرة وافرة حتى صار من حقه أن يقول ما قاله الجاحظ: "لولا ما أودعت لنا الأوائل في كتبها، وخلدت من عجيب حكمتها، ودونت من أنواع سيرها، حتى شاهدنا بها ما غاب عنّا، وفتحنا بها كل مستغلق كان علينا، فجمعنا إلى

[1]- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[2]- المصدر نفسه،الصفحة نفسها .

[3]- جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته العربية المص، ص332.

[4]- المصدر نفسه، ص332.

قليلنا كثيرهم، وأدركنا ما لم نكن ندركه إلاّ بهم لما حسن حظنا من الحكمة، ولضعف سببنا إلى المعرفة"[1]، واقتصرنا على ذكرهم فقط دون غيرهم لما لهم من تأثير مباشر في ميول جبران الصوفي.

ج- الثقافة الشرقية:

نزل جبران مع أمه وإخوته الحي الصيني في بوسطن الذي أغلب سكانه من الصينيين، فتأثر بهم وبعاداتهم وتقاليدهم ولا سيما عندما ظهرت الجمعية الثيوصوفية* وبدأت تنشر تعاليمها في أمريكا، إذ قامت بين ناشرتها (حَنَة بيزانت) وجبران علاقة وطيدة مكنته من الإلتقاء بالشاعر الروحي الهندوسي (كريشنا مورتي)، فقامت بينهما علاقة روحية قويّة جعلت جبران يؤمن بعقيدتي التقمص ووحدة الوجود اللتين أرجأنا الحديث عنهما إلى الفصل اللاحق، كما قامت علاقة أيضا بينه وبين (طاغور) أحد معلمي الهندوسية الذي تحدث عنه في قصة (الشاعر البعلبكي) تحت اسم حكيم زار أحد الأمراء يدعوه إلى "الإعتقاد بتقمص الأرواح من جسد إلى جسد، وانتقال النفوس من جيل إلى جيل حتى تبلغ الكمال، وتصير إلى مصف الآلهة"[2].

تأثر جبران بالجو الفلسفي السائد في بوسطن التي عرفت تيارات تحاول الإطلاع على ثقافة الشرق وروحانيته وفهمها، وقد عبر عن ذلك بقوله: "سمعت تعاليم كنفوشيوس، وأصغيت لحكمة برهما، وجلست بقرب بوذا تحت شجرة المعرفة"[3]، واطلع على الميثولوجيا الهندية واليونانية والمصرية والسومرية

---

[1]- أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، المجمع العلمي العربي الإسلامي، بيروت، ط.3، 1969، ج.3، ص ص42-43.

* الثيوصوفية: نعني بها الحكمة، وهي اسم لجمعية هندية نشأت في بومباي وقامت بشر تعاليمها في أوربا وأمريكا.

[2]- جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته العربية، ص276.

[3]- المصدر نفسه ، ص197.

والبابلية والفينيقية التي يظهر أثرها جليا في كتابه (النبي)، فاسم (أورفليس) مشتق من الديانية الأورفية* اليونانية الأصل، و(ميترا) اسم يعود إلى أحد الديانات القديمة والمقصود منه الإله الشمس أو الإله النور، إلى جانب ذلك غالبا ما نجد في كتاباته حديثا عن الأرواح والأشباح والآلهة والمردة وبعض الأسماء القديمة كبراهما وبوذا وزرادشت، وكثيرا ما نجده يستعين برموز واستعارات الميثولوجية كنبتون، وعشتروت، وتموز، وطائر الفينيق وغيرهم كثير.

أعجب جبران بآداب الشرق وروحانيته التي تنقي النفس وتطورها ، وتوقظ فيها القوى الإبداعية الدفينة في باطنها، فهام بها وراح "يتلقى ريّاها ويترسم غايتها التي هي النقاء والتطهر من الحس والمادة والإتحاد بالله، ويتغنى بها تغني المؤمن الذي وجد ضالته، مما أعطى لكتبه مسحة الأسفار المقدسة وشيئا كثيرا من لغتها ونكهتها"[1].

د– الثقافة الغربية:

تمثل بوسطن مركز انطلاق الحركات الفكرية التحررية في الولايات المتحدة الأمريكية، منها سطع النور الذي حارب الظلام والجهل والإقطاعية، ويكفيها فخرا أنه خرج من بين جنباتها علماء كفرنكلين، وامرسون، وإدغار ألن بو...، وبحكم إقامة جبران في هذه المنطقة فقد تَشَرب الفكر السائد هناك خصوصا بعد تعلمه الإنجليزية، وشروعه في قراءة ما يقع بين يديه من كتب بتوجيه من (فريد هولاند داي) الذي أشار عليه بأن يقرأ (كوخ العم سام) و(كنز الوضعاء) لمترلنك و(القاموس الكلاسيكي)

* الأورفية: ديانة قديمة عرفها الإغريق، تهتم بمصير الإنسان وبعلاقاته بالأمور الإلهية.

[1]– طنسي زكا، بين نعيمة وجبران، مكتبة المعارف، بيروت، د ط، د ت، ص74.

لجون لامبرير، الذي زرع في ذاته بذرة الشك فصار لا يأخذ المعرفة كأنها مسلمات بل يبحث ويتحرى صوابها من خطئها.

اطلع جبران على آثار كل من وليم بليك وجان جاك روسو، ورالف والدوامرسون ومترلنك ونيتشه وغيرهم، فتعمق في دراستهم بدافع من قلقه الميتافيزيقي، ورغبة منه في اكتساب معرفة متنوعة يختزنها ليخرجها "على لسانه شعرا أو نثرا يطبعها بطابعه، ويلونها بشعوره وأحاسيسه، فجاءتنا أدبا جبرانيا مميزا"[1]، وهذا ما جعل (مي زيادة) تنعته بالأناني قائلة: "... إن تلك الشخصية أنانية لأنها تحول كل ما يتصل بها إلى جزء منها، ثم تخرجه على القرطاس وكأنه إلهام شخصي لم يظفر به من قبل أحد"[2].

وقد بدا أثر كل اسم من الأسماء التي قرأ لها في مؤلفاته، فعلى سبيل المثال لا الحصر ظهر أثر(بليك) في (دمعة وابتسامة)، واستمدّ منه نزعته الإنسانية الداعية إلى الإخاء والمساواة لذا وجدناه يتمرد على الإقطاع ويحارب رجال الدين والملوك الطغاة ويتغنى بالإنسان البسيط كالفلاح والراعي...، أما (نيتشه) فلمحنا تأثره به واضحا في كتابيه(النبي) و(العواصف)، فأدب جبران مزيج من تفاعل روحي وفكري استقاه من (وليم بليك) و(نيتشه) و(رودان) وانبثق منه ما كتبه بالعربية والإنجليزية[3] الذي يُظهر لكل قارئ له دور الثقافة الغربية في ترسيخ نزعاته الصوفية الروحانية، وهو ما سنفصل الحديث فيه حين نستعرض أبرز الأعلام الذين تركوا بصماتهم في إنتاجه.

- **رالف والدوامرسون:**

[1]- ريموند قبعين، النزعة الروحية في أدب جبران ونعيمة، ص28.

[2]- مها خير بك ناصر، جبران أصالة وحداثة، ص28.

[3]- ينظر: وديع أمين ديب، الشعر العربي في المهجر الأمريكي، دار الريحاني، بيروت، د.ط، 1955م، ص147.

هو فيلسوف وشاعر ولد في بوسطن وتعلم بمعهد اللاهوت بهارفد، مال منذ صغره إلى العلوم الدينية، فاتسم تفكيره بالمثالية والتصوف، دعا إلى الإصلاح الديني والاجتماعي والفكري، واشتهر بمقالته (الطبيعة) التي منحته لقب زعيم التعالي، والتعالي يُقصد به الاهتمام "بكل ما هو روحي، والسمو بالروح إلى آفاق علوية ومعاونة كل من يعيش بالروح"[1].

انتشرت أفكار(امرسون)في بوسطن التي عاش فيها جبران، فتأثر بها هذا الأخير تأثرا شديدا، وما يدل على ذلك تصريح (جوزفين بيبودي) أنها لو بقيت صحبة جبران لمدة زمنية طويلة فستصير بوذا[2]، فامرسون انفتح على تراث الشرق الهندي ودعا إلى "فكر إنساني واحد دعاه بالروح الكلي. كما بشر بأن الإلهام الإلهي لا ينقطع، وأن الإنسان الفرد يتصل به بوساطة الحدس، إذ يمكن للصلة بين الإنسان والروح الكلي أن تتوقف توقفا آنيا ولكنها(...) تخلق وعيا صوفيا ومعرفة على مستوى عال"[3]، كما يؤمن امرسون بوجود قوة تسيطر على الطبيعة وتظهر في كل جزء من أجزاءها، وبخلود النفس من خلال التقمص.

كل هذه الأفكار التي نادى بها (امرسون) ألفيناها في كتابات جبران لا سيما في قصة (رماد الأجيال والنار الخالدة) وكتاب (النبي)، فجبران آمن بنظام روحي متعال لا يحده الزمان ولا المكان، وبخلود الروح التي تعود مرات عديدة عن طريق التقمص وبتحررها من عبودية الجسد بالموت أو الحب، وبجوهر كلي يسيطر على الطبيعة التي تتحد مع الإنسان "فوحدة الإنسان والطبيعة في الصخر في الغيوم،

[1]- فصل سالم العيسى، النزعة الإنسانية في شعر الرابطة القلمية، دار اليازوري العلمية، الأردن، ط6، 2006م، ص61.

[2]- ينظر: نذير العظمة، جبران خليل جبران في ضوء المؤثرات الأجنبية دراسة مقارنة، دار طلاس، الجزائر، ط1، 1987م، ص79.

[3]-المرجع نفسه نذير العظمة ، ص80.

في الشجر، في النهر، في الشلال تنضج بشكل ظاهر في جميع إنتاج"[1] قلم جبران وريشته، وفي مواكبه يتحدث عن الثنائية في مجتمع البشر من خير وشر وعدل وظلم وفقر وغنى وجمال وقبح... التي لا يمكن أن تزول إلا إذا توجهنا إلى الطبيعة.

وثق(امرسون) بالإنسان ودافع عن حقوقه وحريته، وجبران حارب التعسف والإقطاع ودعا إلى إعادة حقوق الإنسان المسلوبة ونشر المساواة والعدل، فنشأ على مبدأ الحرية والاعتماد على النفس ،وعدم الرضوخ لأي سلطة تحد من قدراته وإمكانياته، فجعل الحدس وسيلته في المعرفة ونبذ التمييز والفرقة بين الناس وأصرّ على عودة الإنسان إلى براءته إلى الطبيعة الطاهرة، فوصل بذلك إلى التصوف لأن "الله وضع في كل نفس رسولا ليسير بها إلى النور"[2].

- **وليم بليك:**

هو شاعر وكاتب ورسام انجليزي حظي بمكانة مرموقة وآثاره ما تزال إلى اليوم محل دراسة ونقد لغناها وتميزها على نتاج أترابه، سمع جبران عنه الكثير من (جوزيفين بيبودي) و(فريد هولاند داي)، وعندما سافر إلى باريس ليدرس الرسم أتيحت له فرصة التعمق في آثاره فوجده روحا غريبة كروحه، تترجم قلقها الميتافيزيقي إلى سطور وخطوط، مطلقة جماح خيالها إلى عالم الرؤى والأشباح والضباب[3]، فكان جبران كلما قرأ أثرا من آثاره فرح وقال: "ما أشد التعاطف بيننا!سبحان ربي! كنت أضنني غريبا، وها قد جاءني بليك يؤنس غربتي، كنت أضنني تائها، وها إن بليك يسير أمامي... سأكون سعيدا

[1]- ريموند قبعين، النزعة الروحية في أدب جبران ونعيمة، ص31.

[2]- جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته العربية، ص347.

[3]- ينظر: جميل جبر، جبران في عصره وآثاره الأدبية والفنية، ص71.

عندما يقول الناس فيّ ما قالوه في بليك: هو مجنون. ألم يعلموا أن الجنون في الفن إبداع، وفي الشعر حكمة، والجنون بالله هو أقصى درجات العبادة"[1].

أحب جبران (بليك) وتأثر به تأثرا شديدا خاصة بآثاره النبوئية (كزواج السماء والجحيم) و(قصائد البراءة والتجربة) التي تجلت في إبداعات جبران ولا سيما في بعض قصائده المنثورة في (رمل وزبد) وقصيدة (المواكب).

ومن أوجه الشبه بينهما أن كلاهما ندد بقيود المدنية ،ودعا إلى العودة إلى الطبيعة والتمسك بتعاليم المسيح وكتابه المقدس دون اللجوء إلى الكنيسة التي حولت الإنسان إلى شخص طقوسي وكبلت حريته، فالطبيعة هي الكنيسة وهي العقيدة، أما جنون جبران فهو كجنون بليك معناه الخروج عن القوانين والقواعد المعروفة والعودة إلى النفس الأولى التي تتوق إلى العالم العلوي، وفي هذا الصدد يقول جبران في رسالة كتبها إلى ميخائيل نعيمة: "إذن أنت على شفار الجنون. هذه بشارة جليلة بهولها هائلة بجلالها وجمالها. أقول إن الجنون أول خطوة نحو التجرد الرباني. كن مجنونا يا ميشا. كن مجنونا وأخبرنا ما وراء نقاب العقل من أسرار. إن القصد من الحياة الاقتراب إلى تل الأسرار وليس الجنون مطية. كن مجنونا وابق مجنونا لأخيك المجنون"[2]، فالجنون عندهما ليس عيبا أو عاهة خلقية بل وسيلة تقود إلى المعرفة الأزلية والإيمان الحقيقي.

[1]- ريموند قبعين، النزعة الروحية في أدب جبران ونعيمة، ص29.

[2]- نذير العظمة، جبران خليل جبران في ضوء المؤثرات الأجنبية دراسة مقارنة، ص143.

يرى(بليك) أن الشاعر نبي يتلقى الإلهام فيترجمه في أناشيد تعبر عن حقائق ربانية، لذا نظم قصائد نبوية وحلم بالنبوءة وتاق إليها، وجبران ابن الشرق مهد النبوءات راودته منذ حداثة سنه أحلام عن يسوع، فهيأ نفسه ليقول كلمته التي لفظ أجزاء منها في كتابه (النبي) الذي دعا فيه إلى قلب الشرائع ليضع في مكانها قواعد ومبادئ أخلاقية.

آمن (بليك) بالولادة الثانية والتقمص ووحدة العالم والحدس، وجبران مثله كان التقمص أحد أول المفاهيم التي تبناها وتحدث عنها في مواضع كثيرة، فلقد فتن ببليك حتى قال عنه رودان: "إنه وليم بليك القرن العشرين"[1]، كما صارت أفكار بليك تسري في دمائه وكأنها أشياء سماوية من وحي الخالق، أوليس هو القائل أن بليك هو "الإنسان الإله... ورؤاه أكثر الرؤى ألوهية. لكنه لا يفهم عن طريق العقل. عالمه لا تدركه العين بل عين العين أي الحدس"[2] الذي يتجاوز الحقيقة الظاهرة وينشغل بالتنقيب عن الحقائق الباطنية الدفينة.

- **جان جاك روسو:**

يشترك جبران وروسو في قراءتهما للإنجيل ودعوتهما إلى العودة إليه لأنه بنظرهما الحل الأمثل الذي يقضي على الأزمة التي يعيشها الإنسان الآن، ففي قصتي (يوحنا المجنون) و(الأجنحة المتكسرة) وقصيدة (المواكب) يلح جبران على عودة الإنسان إلى الطبيعة التي تتجسد فيها تعاليم الإنجيل تلقائيا، وهذه

[1]- بولس طوق، شخصية جبران في أبعادها التكوينية والحياتية تحولات المربع، ص209.

[2]- جميل جبر، جبران في عصره وآثاره الأدبية والفنية، ص72.

الدعوة نادى بها من قبل روسو في كتابه(العقد الاجتماعي) الذي ترجمه (أديب إسحاق) إلى العربية واطلع عليه جبران[1].

يرى روسو على غرار جبران أن الإنسان خير بطبيعته والمجتمع هو الذي أفسد طباعه وأخلاقه، وليرجع إلى سجيته الأولى عليه العودة إلى الغاب حيث لا ظلم فيه ولا عدل ولا علم ولا جهل ولا فقر ولا غنى...، بل كل ما فيه حياة فطرية بسيطة هادئة آمنة، وصوت جبران في دعواه هذه "روسوي يمجد الطبيعة وسلامها ويطرب لنغمة نايها، وليس في نظرة جبران إلى الطبيعة ما لا يمكن رده إلى روسو"[2].

- **موريس مترلنك:**

عُرف مترلنك برغبته الشديدة في معرفة لغز الإنسان–حياته وموته ومصيره–، وبتوقه لاكتشاف ما وراء الوجود، فوجد في الطبيعة ما ينشده وعبّر عن المعارف التي بلغها بلغة شعرية ساحرة، يغلب عليها الرمز والغموض خاصة في كتابه(كنز الوضعاء) الذي كان أول ما قرأه جبران فظهر تأثره به جليا في رسومه الصوفية وكتاباته المملوءة بالميول والنوازع الروحية[3].

- **فريديريك نيتشه:**

عكف جبران على قراءة كتاب (هكذا تكلم زرادشت) لنيتشه، ففاز بإعجابه حتى صار يُحَدث من يلاقيه عنه ويدعوه لقراءته، فهاهو يلح على فتاة أمريكية تَعَرف عليها إسمها(مس واطسون) على أن

[1]– ينظر: نذير العظمة، جبران خليل جبران في ضوء المؤثرات الأجنبية دراسة مقارنة، ص179.

[2]– ريموند قبعين، النزعة الروحية في أدب جبران ونعيمة، ص31.

[3]– جميل جبر، جبران في عصره وآثاره الأدبية والفنية، ص68.

تقرأه فيقول: "نيتشه جبار وأي جبار. وكلما طالعته زاد حبك له. لعله من بين أرواح العصر الحديث أكثرها نشاطا وأوفرها حرية. وستبقى كتاباته بعد أن يمضي الكثير مما نحسبه اليوم عظيما. أرجوك... أن تقرئي (هكذا تكلم زرادشت) حالما يتيسر لك ذلك. لأن هذا الكتاب في نظري من أعظم ما عرفته العصور"[1].

أعجب جبران بنيتشه وفلسفته إلى درجة انه صار يخجل من كل ما كتبه سابقا، وكاد يتراجع عن نشر روايته(الأجنحة المتكسرة) متخيلا أن نيتشه لو قرأها سيسخر منه، لكنه قرر في الأخير طبعها لأنها نابعة من قلبه وتعبر عن حبه، وستكون بداية عهد جديد في العالم العربي ونهاية عهد توجعه وشكواه، وفي الوقت نفسه طلب منه (نسيب عريضة) الإذن ليجمع مقالات قديمة له في كتاب(دمعة وابتسامة) فردّ عليه قائلا:

"ذَاكَ عَهْدٌ منْ حَيَاتِي قَدْ مَضَى بَيْنَ تَشْبيب وَشَكْوَى ونُوَاح

... والشاب الذي كتب (دمعة وابتسامة) قد مات ودفن في وادي الأحلام... ولكن لا تنسوا أن روح ذلك الشاب قد تقمصت في جسد رجل يحب العزم والقوة... ويميل إلى الهدم ميله إلى البناء. فهو صديق الناس وعدوهم في وقت واحد"[2].

تأثر جبران بنيتشه فتغيرت لغته وصار غير مباليا بأوجاع الناس وعواطفهم، يستعذب التهكم عليهم والسخرية من أوضاعهم، ويتلذذ بمعاناتهم وشقائهم، وبعد أن كان يواسيهم ويخفف عنهم صار

[1]- ميخائيل نعيمة، جبران خليل جبران حياته- موته- أدبه- فنه، ص ص142-143.

[2]- ميخائيل نعيمة، جبران خليل جبران حياته- موته- أدبه- فنه ، ص144.

يخاطبهم والرفش في يده حتى كتب مقالا بعنوان(يا بني أمي) جاء فيه: "لقد كنت أحبكم يا بني أمي وقد أضرّ بي الحب ولم ينفعكم. واليوم صرت أكرهكم والكره سيل لا يجرف غير القضبان اليابسة ولا يهدم سوى المنازل المتداعية. كنت أشفق على ضعفكم يا بني أمي والشفقة تكثر الضعفاء وتنمي عدد المتوانين ولا تجدي الحياة شيئا، واليوم صرت أرى ضعفكم فترتعش نفسي اشمئزازا وتنقبض ازدراء.

أنا أكرهكم يا بني أمي لأنكم تكرهون المجد والعظمة.

أنا أحتقركم لأنكم تحتقرون نفوسكم.

أنا عدوكم لأنكم أعداء الآلهة ولكنكم لا تعلمون !!!"[1]

افتتح جبران عهده الجديد بـ (العواصف) وافتتح العواصف بمقال(حفار القبور) معلنا بداية ثورة تأكل الأخضر واليابس، وتطمح لبناء انسان متفوق والقضاء على أولئك الذين يمشون على الأرض وهم أموات، كما ضمّن كتابه هذا مقالات عديدة تحمل نفس النبرة كـ(العبودية) و(الملك السجين) و(مات أهلي) وغيرها، والذي يقرأها يدرك حجم العواصف التي كانت تجتاح رأس جبران وتقض مضجعه وطمأنينته، لكنه ما لبث أن هدأت عواصفه حين ابتعد عن سلبية فلسفة نيتشه ورجع إلى عقيدته المارونية، لما تيقن من انعدام التوافق بينهما في كثير من القضايا، فكتب كتابه(النبي) الذي بناه على أساس المحبة جوهر الديانة المسيحية، ولم يبق معه من أثر نيتشه إلا روعة لغته وسحر عباراته ووضوح بيانه.

[1]- جبران خليل جبران، العواصف، ص ص44-46.

.

كانت هذه هي أهم الأصول المعرفية لنزعة جبران الصوفية ولو أننا لم نتمكن من رصدها كلها لكثرتها وتشعبها، فجبران كما هو معروف عاش حياة ثقافية غنية تشرّب فيها من مختلف المنابع العربية والشرقية والغربية، لكنه لم يكن مقلدا لأحد بل كل ما يأخذه يخضعه لميزانه الخاص فيخرج على لسانه بمسحة خاصة به لا بغيره، وهذه هي الموهبة المبدعة وروح الفنان السحري.

الفصل الثاني : مظاهر النزعة الصوفية في أدب جبران

توطئة:

كثيرة هي الدراسات التي حاولت أن تُدرج جبران خليل جبران في عداد المتصوفين، بيد أن الحقيقة غير ذلك، فهو لم يكن متصوفا بالمعنى الحرفي كالحلاج والبسطامي وجلال الدين الرومي وابن الفارض وابن عربي وغيرهم، بل كان ينزع إلى بعض الميول الصوفية "كالإيمان بسلامة المعرفة القلبية وعقم الاجتهاد العقلي، والاستكشاف الباطن بالصدوف عن المظاهر الخارجية العارضة والاهتمام ببواطن الأشياء وبباطن الذات، وهاجس الشوق والحنين المؤدي إلى اليقظة الروحية، والسعي إلى الكمال الشخصي بتجاوز الواقع الوضيع، ثم اعتماد الحب أو المحبة كصفة خلقية أساسية للتكامل"[1].

هذه الميول صادفناها في أغلب كتاباته فقد تحدث مرات عديدة عن المعرفة الحدسية كأداة لإدراك الحقائق، فيقول مثلا في (إرم ذات العماد): "أفتظن أنك تستطيع إدراك الجواهر باستفسارك عن الأعراض... هي لا ولن تصغي إلى ما تقوله لا ولا تنظر إلى ما تفعله بل سوف تسمع بأذن أذنها ما لا تقوله وترى بعين عينها ما لا تفعله"[2]، وفي مقال (القشور واللباب) تحدث عن الإستكشاف الباطن فبيّن أن الناس مشغولين بمعرفة سطحياتهم وغفلوا عن رؤية أسرار الروح وما خفي فيها، فليست الحياة بظواهرها بل بجواهرها وعلينا ألا نهتم بما يظهره الإنسان بل بما يخبئه في نفسه[3]، وفي (البنفسجة الطموح) أشار إلى أهمية الشوق إلى معرفة أسرار الوجود لأن الهدف من حياة الإنسان أن يسعى ليكتشف ما وراء

[1]- غسّان خالد، جبران الفيلسوف شخصية العبقري في منافذ خلاصها النقد الاجتماعي والبنية الفردوسية جدلية الإنسان والألوهة، ص252.

[2]- جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته العربية، ص340.

[3]- ينظر: جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته العربية ، ص ص291-292.

الوجود[1]، إلى جانب ذلك نجده يورد الكثير من المصطلحات الرائجة بين الصوفيين كالجوع الروحي والكمال والشوق والذات المعنوية والنور الإلهي والحنين والسكينة والرؤيا...

إنطلاقا مما سبق، جنح كثير من الدارسين إلى نعت تصوف جبران بنعوت مختلفة فمنهم من سماه تصوف تحرري يدعو إلى نبذ الحياة التقليدية وبناء عالم جديد مثالي، ومنهم من رأى أنه تصوف إيجابي تفاؤلي لا يقهر الجسد بل يدعو إلى الحفاظ عليه حتى يليق بالمعرفة الإلهية التي ستحل فيه، ولا ينكر المادة بل يجعلها سلّما يكشف خفايا الروح، ولم يحتقر الملذات الطبيعية بل كان بطل قصته (العاصفة) (يوسف الفخري) يشرب القهوة والخمر ويتمتع بلذائذ الدنيا، كما أنه لم يعتزل الناس للصلاة والتقشف وإنما للتأمل ومعرفة أسرار الكون، وهناك من سمى مذهبه بالتصوف الإنتخابي أو الإنتقائي لأنه كان يختار من أفكار الصوفيين ما يتلائم مع مبادئه الإنسانية[2]، ومن هذه الأفكار التي ترددت في كتاباته وأظهرت ميولاته الصوفية نذكر:

1- التقمص:

أثارت ظاهرة التقمص منذ القدم جدلا كبيرا بين الفلاسفة والمفكرين ورجال الدين، لما اكتنفها من غموض وإبهام جعل اللغة غير قادرة على التعبير عنها، فتعددت تعاريفها وتنوعت تسمياتها من التناسخ إلى العودة إلى التجسد إلى التقمص، التسمية العربية الرائجة حاليا، فما هو التقمص؟ وما مفهومه عند جبران؟

[1]- ينظر: المصدر نفسه، ص283.

[2]- ينظر: جبران خليل جبران، مختارات ودراسات، جمع سهيل بديع بشروئي، تقديم اصطفان فيلد، دار المشرق، بيروت، 1970، ص ص121-122.

التقمص مبدأ ديني قديم لم يُعرف تاريخ ظهوره بالضبط، لكن حُددت البيئة التي نشأ فيها وهي منطقة تسمى(التبت) تقع بين الصين واليابان، ومنها شاع وانتشر في العالم فعرفته شعوب كثيرة كالشعب الهندي والياباني والأمريكي والإسلامي-الدروز-، وكل شعب عرّفه بحسب معتقده.

فيقصد البوذيون به انتقال الروح من جسد لآخر بعد موته لأن الحياة الدنيوية عندهم عذاب، والروح إذا لم تكن صالحة سترجع إلى الأرض وتحل في جسد آخر حتى تصير طاهرة وبالتالي تصل إلى مرحلة النيرفانا[1]، أما البراهمة فيرون أن التقمص هو تكرار للولادة والوفاة أو تجوال للروح التي لم تتمكن من الاندماج في الكل(الإله)، لأنها روح شريرة لا تنتقل إلى جسد إنسان آخر "بل يجوز أن تحل في كلب أو شجرة، وما يزال تكرار الوفاة فالولادة إلى أبد الآبدين، إذا لم تستطع أن تتجرد من الشهوات تجردا تاما يصعد بها إلى حيث يمكنها الاتحاد مع الكل، فإذا استطاعت التخلص من إسار الشر فإنها ستندمج في الكل لتنعم بالاتحاد معه، وبهذا الاتحاد تنجو من العذاب الذي يتجلى في الولادة الجديدة المتكررة"[2]، وعلى غرار ذلك يرى أرسطو أن النفس إذا لم تكن صالحة ستعود إلى الأرض بعد موتها لتحل في جسد حيوان لذلك قال مقولته الشهيرة: "إعرف نفسك".

كما يؤمن الدروز وهي جماعة إسلامية انشقت عن الإسماعيلية بالتقمص، أي انتقال الروح من جسد بشري إلى آخر، فالنفس لديهم خالدة لا تموت والذي يموت هو قميصها (الجسد) الذي يصيبه البلى فتنتقل إلى قميص آخر، والملاحظ في مذهبهم أنه صاف من رواسب الوثنية، يركز على جوهر الإنسان وطموحه في نيل الكمال.

[1]- ينظر: غسّان خالد، جبران الفيلسوف شخصية العبقري في منافذ خلاصها، ص305.

[2]- أحمد عبد الغفور عطار، الديانات والعقائد في مختلف العصور، مطبعة مكة المكرمة، د ط، 1981م، ج1، ص103.

رفض جبران الفناء وآمن بخلود الروح وسعيها الحثيث لبلوغ المثالية، فاعتنق التقمص بالمفهوم الدرزي ورأى أن الحياة لا تنتهي بعمر واحد ولا بأعمار لأن الإنسان ينشد الكمال ويبحث عن الله الذي لا يمكن أن يجده في عشرين سنة أو في مائة أو في ألف[1]، لذا كان يشعر دائما بأنه عاش حياة بشرية في الماضي إذ يقول لماري هاسكل أنه: "عاش مرتين في سوريا، لكنّما لفترات قصيرة، ومرة في إيطاليا إلى سن الخامسة والعشرين، وفي اليونان حتى الثانية والعشرين، وفي مصر حتى الشيخوخة، وعدة مرات ست مرات أوسبعا ربما في بلاد الكلدان، وواحدة في كل من الهند وفارس"[2]،كما أنه سمح لنسيب عريضة أن يبوح بسره في النبذة التي كتبها عن حياته والتي جاء فيها: "ولد في بشري–لبنان– ويقال في بومباي–الهند–"[3].

عبّر جبران عن إيمانه بعقيدة التقمص التي تقربه من إدراك الحقيقة الإلهية في معظم كتاباته، بدءا من قصته(رماد الأجيال والنار الخالدة) التي روى فيها قصة كاهن في هياكل بعلبك يدعى(ناثان بن حيرام) الذي أحب فتاة في خريف عام مائة وستة عشر قبل الميلاد، غير أنها ما لبثت أن ماتت لتتركه وحيدا حزينا تائها في الأودية، "ولكن الاجيال التي تمر وتسحق أعمال الإنسان لا تفني أحلامه، ولا تضعف عواطفه. فالأحلام والعواطف تبقى ببقاء الروح الكلي الخالد، وقد تتوارى حينا وتهجع آونة متشبهة بالشمس عند مجيء الليل وبالقمر عند مجيء الصباح"[4]، لذا في سنة 1890م يعود العاشقان إلى بعلبك ،وقد صارت أطلالا في زي راع يدعى (علي الحسيني) الذي يلتقي بفتاة جميلة تحمل جرتها

[1]– ينظر: ميخائيل نعيمة، جبران خليل جبران حياته– موته– أدبه– فنه، ص92.

[2]– بولس طوق، شخصية جبران في أبعادها التكوينية والحياتية المكونات الأولية، ص143.

[3]– المرجع نفسه، ص143.

[4]– جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته العربية، ص33.

على كتفيها لتملأها من الجدول ويقع في حبها، وهذه الفتاة لم تكن في الحقيقة سوى الحبيبة التي اختطفها الموت وغابت لقرون، وهذا الراعي لم يكن سوى حبيبها الكاهن الذي عاد إلى الحياة، فتقول الفتاة لفتاها: "قد أعادت عشتروت روحينا إلى هذه الحياة كي لا نحرم ملذات الحب، ومجد الشبيبة"[1]، فهذه القصة تدل بشكل قاطع على أن العودة إلى الحياة من خلال التقمص تُمكن الإنسان من تحقيق ما لم يحققه في حياة واحدة.

وفي كتاب (الأرواح المتمردة) في قصة (مضجع العروس) تؤمن بطلة القصة بأن مضجع الحب الحقيقي لن تجده في الأرض بل في السماء بعد موت جسدها وجسد حبيبها وتغييره بقميص آخر فتقول: "قد بحثنا فلم نجد مضجعا يليق بعناقنا في هذا العالم الذي جعلتموه ضيقا بتقاليدكم ومظلما بجهالتكم وفاسدا بلهاثكم، ففضلن الذهاب إلى ما وراء الغيوم"[2].

وفي كتابه (السابق) في قصة (الخلافات) تقمصت رُوحُ (مِحْرَاب) الجائر مَلك (البَتْرُون) جسد ابن ملك (عِشَانة) بقوله: "اصغ أيها الملك فأنبئك الصدق عن مستقبل إبنك الذي ولد لك اليوم: فإن روح عدوك–عدوك اللدود الملك محراب– الذي مات في مساء الأمس لم تلبث روحه على متن الأرياح سوى ليلة واحدة وقد هبطت إلى الأرض ثانية تطلب جسدا تأوي إليه، فلم تر أفضل من جسد ابنك هذا الذي ولد لك اليوم فتقمصته"[3].

[1]– جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته العربية ، ص37.

[2]– جبران خليل جبران، الأرواح المتمردة، المكتبة العلمية الجديدة، بيروت، لبنان، د ت، د ط، ص47.

[3]– جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته المعربة عن الانجليزية، ص65.

.

يرى جبران أن حياة الإنسان لا تبدأ من الرحم وتنتهي في اللحد بل هي حياة أزلية خالدة "فأنا كنت منذ الأزل، وها أناذا، وسأكون إلى آخر الدهر، وليس لكياني انقضاء"[1]، والسنوات التي يعيشها الإنسان ما هي إلا لحظات، وحين تنفصل النفس عن الجسد لا تذهب إلى نعيم ولا إلى جحيم، بل تسبح في فضاء اللانهاية ثم تعود إلى جسد جديد لأن الحياة لا تنتهي بعمر واحد، وقد استدلّ جبران على ذلك بقوله تعالى: "وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾"[2]، فالحياة البشرية ليست إلا "تصفية حسابات. نموت فنترك خلفنا ديونا لنا وديونا علينا–من خير ومن شر– من حب ومن بغض– من صداقة ومن عداوة. فنعود لنستوفي ونوفي. وسنظل نستوفي ونوفي إلى أن لا يبقى لنا من رصيد حساب إلا الله"[3].

يحقق التقمص بهذا المفهوم رغبة جبران في البقاء الازلي ، و يعبر عن ذلك بقوله:

وَالمَوْتُ في الأَرْض لابْن الأَرض خَاتمة ... وللْأَثيري فَهُو البَدْءُ والظَفر

لَيْسَ في الغَابَات مَوْتٌ ... لَا وَلَا فيها القُبُور

فإذا نيسان وَلَى ... لَم يَمُتْ مَعَهُ السُرُور

إن هَوْلَ المَوْت وَهْمٌ ... يَنْثَني طَي الصُدُور

[1]– جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته العربية، ص197.

[2]– الآية 28 من سورة البقرة.

[3]– ميخائيل نعيمة، جبران خليل جبران حياته– موته– أدبه– فنه، ص92.

فالذي عَاشَ رَبيعا كالذي عَاشَ الدُهُور[1]

والملاحظ من خلال هذا النص أن جبران يجعل من الموت خطوة ضرورية توصله إلى الخلود، لذلك يرى أنه ولادة جديدة ودعا الناس إلى أن يفرحو بموته قائلا: "لا تزعجوا راحة الأثير بالتعزيم والتكهين، بل دعوا قلوبكم تتهلل معي بتسبيحة البقاء والخلود.لا تلبسوا السواد حزنا علي، بل تردوا البياض فرحا معي.ولا تتكلموا عن ذهابي بالغصات، بل أغمضوا عيونكم تروني بينكم الآن وغدا...ها قد بلغت قمة الجبل فسبحت روحي في فضاء الحرية والإنعتاق"[2]، وبذلك يمثل الموت عنده حرية، فيفرح به لأنه يبشره بنهاية مرحلة وبداية مرحلة جديدة تقلص المسافة بينه وبين هدفه الأسمى، لذا كلما فكر في الموت وجد فيه لذة غريبة تنقله إلى زمن الروح الكلي الذي يتجدد إلى أبد الدهر، ويجسد جبران اعتقاده هذا تجسيدا شاعريا بقوله: "تتبخر مياه البحر وتتصاعد ثم تجتمع وتصير غيمة وتسير فوق التلال والأودية حتى إذا ما لاقت نسيمات لطيفة تساقطت باكية نحو الحقول وانظمت إلى الجداول ورجعت إلى البحر موطنها. حياة الغيوم فراق ولقاء، دمعة وابتسامة. كذا النفس تنفصل عن الروح العام وتسير في عالم المادة وتمر كغيمة فوق جبال الأحزان وسهول الأفراح فتلتقي بنسيمات الموت فترجع إلى حيث كانت: إلى بحر المحبة والجمال، إلى الله"[3]، وبذلك فالموت ليس فناء بل شكل من أشكال البقاء والاستمرار[4].

[1]- جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته العربية، ص210.

[2]- المصدر نفسه، ص193.

[3]- جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته العربية ، ص143.

[4]- ينظر: ميخائيل نعيمة، في الغربال الجديد، مؤسسة نوفل، بيروت، ط3، 1983م، ص244.

ويؤكد جبران على أبدية الإنسان وعوداته المتكررة إلى الأرض في قصيدة(المواكب) التي بيّن فيها عدم فناء الذرات في الجسد والروح، وأن الجسد ما هو إلا رحم تسكن فيه النفس ريثما يأتيها الموت الذي هو مخاض الولادة الجديدة:

ظَل الجَميعُ فَلَا الذَرَاتُ في جَسَد تُثْوى وَلَا هي في الأَرْوَاح تُحْتَضَر

الجسْمُ للرُوح رَحمٌ تَسْتَكنُ به حتى البُلُوغ فَتَسْتَعْلي وَيَنْغَمر

فهيَ الجَنين ومَا يَوْمُ الحِمَام سوى عَهْدُ المخَاض فلا سَقْطٌ ولا عسر[1]

وفي كتاب (العواصف) نلمح عقيدة التقمص حاضرة في قصة (الشاعر البعلبكي) الذي عاش في مدينة بعلبك سنة 112 ق.م، وكان مقربا من الأمير، وفي أحد الأيام عُثر عليه ميتا في وقت يتزامن مع مثول حكيم هندي في حضرة الملك ليحدّثه عن التقمص، فلما سمع الأمير بموت الشاعر سأل الحكيم عن إمكانية عودته إلى الأرض ثانية والإلتقاء به، فأجاب الحكيم: "كل ما تشتاقه الأرواح تبلغه الأرواح، فالناموس الذي يعيد بهجة الربيع بعد انقضاء الشتاء سيعيدك أميرا عظيما ويعيده شاعرا كبيرا"[2]، وفي سنة 1912م في القاهرة عاد الأمير والشاعر إلى الحياة وتذكرا حياتهما السابقة.

أما كتاب (السابق) فقد خصصه جبران ليبسط فيه رؤيته عن التقمص، إذ افتتحه بمقال (أنت سابق نفسك) الذي أوضح فيه أن الروح تسبق الجسد وتغيره من فترة لأخرى كالظل الذي ينبسط تحت قدميك عند شروق الشمس ويتقلص عند الظهيرة، وينبسط في الشروق الثاني ويتقلص عند الظهيرة

[1]- جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته العربية، ص209.

[2]- جبران خليل جبران، العواصف، ص165.

أيضا، ووجود الإنسان في هذه الارض يشبه تماما ذلك الظل الذي ما إن ينبسط حتى يتقلص حتى تشرق شمس ولادة ثانية تعيده إلى الحياة من جديد[1]، غير أن هذه العودات لا تكون فارغة بل محمّلة بما جنته من أبراج، فما يزرعه الإنسان في حياته السابقة يحصده في حياته اللاحقة وهكذا دواليك حتى يصل إلى ذاته الجبارة (الذات المثلى) التي يهدف إليها كل إنسان، والتي لا تشرب إلا من قدح المحبة[2]، والتي تزداد كِبرا وعظمة كلما انتقلت من مرحلة إلى أخرى بما كسبته من معرفة تحررها من قيود اللحم والعظم، فتحلق حرة طليقة في عالم اللامحدود لأنها "اتحدت بالذات الإلهية الكبرى، وأصبحت عالمة، عارفة بأسرار الكون والكائنات"[3].

وفي حكاية (الضائع) التي نشرها في مجلة الهلال سنة 1921م ولم تتضمنها المجموعة الكاملة مظهر آخر من مظاهر إيمان جبران بالتقمص، إذ يبدأها بأسئلة وجودية "أين كنا، وما كنا قبل أن تحبسنا الحياة في هذه الأجساد؟ أين كانت وما كانت هذه الأرواح العاقلة الحساسة المضطربة في جسومنا قبل أن تسكن جسومنا؟! في أية حالة من حالات الوجود كانت نفوسنا قبل أن تبني الليالي هياكل نفوسنا؟"[4]، ويلتقي الراوي الذي طرح هذه الأسئلة ببطل الحكاية (سليم الرمال) الذي يعود بذاكرته إلى الوضعية التي كان عليها قبل أن تتقمص الروح الجسد فيقول: "تذكرت ما كنت قبل أصير، تذكرت كيف كنت قبل أن أصبح، تذكرت حالتي النفسية قبل أن تلدني أمي، تذكرت روحي قبل أن تتخذ الجسد غلافا، تذكرت مصدري وأنا مطمئن لأن في الذكرى ما يثبت مرجعي... أذكر أنني كنت في الفضاء...

[1]- جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته المعربة عن الانجليزية، ص47.

[2]- ينظر: المصدر نفسه، ص51.

[3]- ثريا عبد الفتاح ملحس، القيم الروحية في الشعر العربي قديمه وحديثه، دار الكتاب اللبناني، بيروت، د ط، د ت، ص151.

[4]- نذير العظمة، جبران خليل جبران في ضوء المؤثرات الأجنبية دراسة مقارنة، ص290.

كنت أشعر بأنني في كل مكان في زمن واحد وفي كل الأزمنة في مكان واحد. وكنت في أشعة الشمس، بل وكنت الأشعة ذاتها... لا أدري ما إذا كنت ذرة في الأثير أو الأثير كله. ولا أدري ما إذا كنت من أميال الحياة ومنازعها أو كل ما في الحياة من الأميال والمنازع[1]، فالزمن والمكان في عقيدة التقمص هو زمن ومكان الروح الكلية التي ليس لها بداية ولا نهاية، سيدة نفسها لا سلطة عليها إلا إذا لبست الجسد، والذي تسعى لتتحرر منه بالحب أو الموت.

إن سعي جبران إلى التحرر من حدود الزمان والمكان ومن كل القيود الاجتماعية التي أعاقت تحركه، جعلته يؤمن بعقيدة التقمص إيمانه بالمسيحية، فقربته الأولى إلى التصوف ومكنته من الإرتفاع من كاتب عربي إلى كاتب عالمي خُلق ليقول كلمة لم يتمكن من لفظها كاملة، لكننا نرجو أن يعود ليكمل ما بدأه على حد قوله على لسان نبيه المصطفي "أنا ذاهب غير أني إذا ذهبت ولدي حقيقة لم أقلها بعد، فإن تلك الحقيقة نفسها ستسعى في نشداني وتلملمني، وإن كانت عناصر جسمي قد تبددت في صمت الأبدية، وأعود ثانية إليكم، بحيث أستطيع أن أكلمكم من جديد"[2]، ويقول في رسالة بعث بها إلى (مي زيادة): "أقول لك يا مي، ولا أقول لسواك، إني إذا ما انصرفت قبل تهجئة كلمتي ولفظها فإني سأعود لأقول الكلمة التي تتمايل الآن كالضباب في سكينة روحي"[3].

[1]- المرجع نفسه، ص306-307.

[2]- جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته المعربة عن الانجليزية، ص480.

[3]- جان لوسيرف، النزعات الصوفية عند جبران خليل جبران، تعريب شعبان بركات، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، د ط، د ت، ص45.

2- الحلولية:

انشغل الإنسان منذ القدم بمسألة إثبات وجود الله، فجنّد كل الوسائل واستنفر كل العقول ليصل إلى حقيقة ذلك ولكن من دون فائدة، الأمر الذي جعله يجنح إلى التسليم بوجوده على طريقة عامة المؤمنين، وهو ما فعله جبران فرأى أن الله حقيقة بديهية لا تحتاج إلى تفكير وإعمال عقل فقال: "إن شئتم أن تعرفوا ربكم فلا تعنوا بحل الأحاجي والألغاز"[1].

آمن جبران بوجود الله ودعا إلى العثور عليه ليس بإعمال العقل ولا باعتزال الناس بل بالمشاركة في الحياة لأنها هي الهيكل والديانة، لذلك نراه يتحدث عن الصوفي فيقول: "إنه لن يجد الله حتى يهجر صومعته، وعزلته، ونسكه، ويعود إلى العالم، يشاركنا في أفراحنا وأتراحنا، ويرقص مع الراقصين في ولائم الأعراس، ويبكي مع الباكين حول أجداث الموتى"[2]، فالله ظاهر لا يحتاج إلى بحث، ويكفي أن نتأمل فيما حولنا لنجده، وهو ما دعانا إليه قائلا: "تأملوا ما حولكم تجدوه لاعبا مع أولادكم، وارفعوا أنظاركم إلى الفضاء الفسيح تبصروه يمشي في السحاب، ويبسط ذراعيه في البرق، وينزل إلى الأرض مع الأمطار. تأملوا جيدا تروا ربكم يبتسم بثغور الأزهار، ثم ينهض ويحرك يديه بالأشجار"[3] فالله حسب جبران يمشي مع الريح ويبتسم في ثغور الأطفال وينزل مع المطر ويظهر في كل مخلوقاته، فالله موجود في كل كائن حي وحالّ في كل شيء، وهذه هي رؤيا نظرية الحلول، فما المقصود منها؟

[1]- جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته المعربة عن الانجليزية، ص134.

[2]- المصدر نفسه، ص443.

[3]- المصدر نفسه، ص134.

الحلولية مذهب ديني قديم يعني "التماهي الجوهري بين الله والعالم فلا انفصال بينهما ولا انفصام. فاللامتناهي كل شيء أو لا شيء، إذ لو وجد أي شيء خارج المتناهي لكان هذا قابلا للنمو. الله هو الكل في الكل، والكون جوهر فرد يبدو من زوايا شتى وفي مظاهر مختلفة تتحد في الألوهة"[1]، فالحلولية تبصر الله في كل شيء فهو في الإنسان والحيوان، والصخرة، والزهرة، والشجرة...، لذلك لم يهتم جبران بمسألة إثبات وجود الله فهو أمر بديهي كما أسلفنا الذكر، والحقيقة التي تحتاج إلى برهان هي نصف حقيقة على حد قوله، لكنه في المقابل اهتم بمعرفة الهوية الإلهية، فرأى أن الله ليس كيانا مستقلا في ذاته، بل هو والكون شيء واحد "فإذا أصغيت في سكينة الليل سمعت الجبال والبحار والأحراج تصلي بهدوء وخشوع: ربّنا وإلهنا، يا ذاتنا المجنحة، إننا بإرادتك نريد، وبرغبتك نرغب ونشتهي. بقدرتك تحوّل لياليا، وهي لك إلى أيام هي لك أيضا. إننا لا نستطيع أن نلتمس منك حاجة، لأنك تعرف حاجاتنا قبل أن تولد في أعماقنا. أنت حاجتنا، وكلما زدتنا من ذاتك زدتنا من كل شيء"[2]، فالله هو كل ما في الكون يحل فيه بحلول مختلف مظاهره الكونية في ذواتهم "فيشعر أنه هو الفضاء ولا حدّ له، وهو هو البحر بدون شاطئ، وأنه النار المتأججة دائما، والنور الساطع أبدا، والرياح إذا هبّت أو إذا سكنت، والسحب إذا أبرقت وأرعدت وأمطرت، والجداول إذا ترنمت أو ناحت، والأشجار إذا أزهرت في الربيع، أو تجردت في الخريف، والجبال إذا تعالت، والأودية إذا انخفضت، والحقول إذا أخصبت أو أجدبت"[3] لأنه واحد متوحد مع الكون.

[1]- جميل جبر، جبران في عصره وآثاره الأدبية والفنية، ص170.

[2]- جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته المعربة عن الانجليزية، ص126-127.

[3]- جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته المعربة عن الانجليزية، ص.130

غير أن حلول الله في الكون لا يترك الإنسان خارج هذه الوحدة بل تشمله أيضا لا سيما وأنه متحد بالأشياء، ففي أحد الأيام زار النبي في حديقته (فردوس الإغريقي)، وبينما هو متجه نحوه عثرت قدمه بحجر فغضب وقال بصوت منخفض: "يا لك من شيء ميت في طريقي"[1]، فقال المصطفى: "لماذا تقول: يا لك من شيء ميت؟ هل قضيت زمنا طويلا في هذه الحديقة على هذه الحال، وأنت لا تعرف أن ليس فيها شيء ميت؟ إن جميع الأشياء هنا تحيا وتتألق بضياء النهار وجلال الليل، أنت والحجر شيء واحد. هناك فرق وحيد في نبضات القلب، فإن قلبك ينبض على نحو أدق قليلا(...) إلا أنه لا ينطوي على هدوء الحجر يمكن أن يكون لخفقه نغم آخر، غير أني أقول لك: إذا أنت سبرت أغوار روحك وقست أعالي الفضاء، فإنك لن تسمع سوى أغنية واحدة، والحجر والنجم يترنمان بتلك الأغنية معا في جوقة متكاملة منسجمة"[2]، فالتعدد والتنوع الذي نلاحظه في الكون ما هو إلا وهم وخدعة تفنده الوحدة التي تجمع بين الله والعالم والإنسان، وهو ما جعل جبران يوحد بين الروح والمادة في قوله على لسان آمنة العلوية: "أنا قد دخلت المدينة المحجوبة بجسدي وهو روحي الظاهرة ودخلتها بروحي وهي جسدي الخفي. ومن يحاول التفريق بين ذرات الجسد كان في ضلال مبين، إنما الزهرة وعطرها شيء واحد"[3].

لن يتحد الإنسان بالله ويندمج معه إلا عندما يبلغ ذاته الكبرى، الذات المتسامية المتعالية عن كل شيء فتصير كما "قطرة الندى التي تعكس النور لأنها هي والنور شيء واحد. وأنتم تعكسون الحياة

[1]- المصدر نفسه ، ص466.

[2]- المصدر نفسه، ص ص466-467.

[3]- جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته العربية، ص344.

لأنكم أنتم والحياة شيء واحد وعندما يخيم الظلام عليكم قولوا: الظلام فجر لمآ يولد بعد، وعندما يلفني الليل بجلبابه فإن الفجر يولد في نفسي على نحو ما يولد فوق الروابي. وليست قطرة الندى التي تنداح كرّة في شفق الزنبق غير شبيهة بكم، وأنتم تجمعون روحكم في قلب الله"[1]، والله حال في الإنسان فهما شيء واحد، ومن الحكمة "أن يقل كلامنا عن الله الذي لا نستطيع أن نفهمه، ويكثر حديثنا بعضنا عن بعض، إذ يتاح لنا أن نتفاهم... أننا عبق الله وأريج طيبه. نحن الله في الورقة، في الزهرة وأغلب الأحيان في الثمرة"[2]، فالله نعثر عليه في كل مخلوقاته الحية والجامدة، وبخاصة في الإنسان الذي يسعى إلى الإتحاد به لأنه ليس كلمته فحسب بل هو صادر عنه وينمو معه.

ويتمادى جبران في رؤيته الحلولية إلى الحد الذي يجعل فيه الإنسان إلها كما ذكرنا سابقا، فيصرح على لسان المارد في حفار القبور قائلا: "أنا ربّ نفسي"[3]، وفي حديقة النبي يجيب على سؤال حول طبيعة الله فينصح السائل بـ"أن يتحدث بعضكم عن بعض، ويفهم الواحد منكم الآخر، قريبا لقريب، وإلها لإله"[4]، لأن الإنسان حين يحقق ذاته العظمى يرتفع إلى مصف الآلهة، فيتفرد بالسلطة والسيادة على الكون:

في ظَلَام الليْل يَمْشي مُبْطئا وَهُوَ مثل هَوْل الليْل قَدْ بَدَا

[1]- جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته المعربة عن الانجليزية، ص465.
[2]- المصدر نفسه، ص469.
[3]- جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته العربية، ص217.
[4]- جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته المعربة عن الانجليزية، ص469.

وَحْدَهُ يَمْشي كَأَن الأَرْض لَمْ تَبرَ إلاّه عَظيما سَيدا[1]

وفي المجنون يخاطب جبران الله قائلا: "إنني عبدك يا ربي، مشيئتك الخفية شريعتي، وسأظل خاضعا لك سحابة الحياة. فلم يجبني الله (...) وبعد ألف سنة صعدت ثانية إلى الجبل المقدس وخاطبت الله قائلا: أنا جبلة يديك يا خالقي، من تراب الأرض صنعتني وبنفحة من روحك العلوية أحييتني فأنا مدين لك بكليتي. فلم يجبني (...) وبعد ألف سنة صعدت إلى الجبل المقدس أيضا وناجيت الله ثالثة قائلا: يا أبتاه القدوس أنا إبنك الحبيب(...) فلم يجبني(...) وبعد ألف سنة صعدت إلى الجبل المقدس وناجيت الله رابعة قائلا: يا إلهي الحكيم العليم، يا كمالي ومحجتي، أنا أمسك وأنت غدي، أنا عروق لك في ظلمات الأرض وأنت أزاهر لي في أنوار السماوات ونحن ننمو معا أمام وجه الشمس. فعطف... علي وانحنى فوقي... وطواني الله في أعماقه. وعندما انحدرت إلى الأودية والسهول كان الله هناك أيضا"[2]، أما في كتاب (آلهة الأرض) فيقول على لسان الإله الثاني: "الإنسان هو ابن قلبنا الأصغر، الإنسان إله يرتفع إلى ألوهيته ببطء شديد"[3]، وفي ذلك إشارة واضحة إلى أن الله الذي يُعبد بحسب جبران ليس سوى إنسان بلغ ذاته العظمى، فحلوليته جعلته يضحي بالله في سبيل الإنسان، لأنه فتش عن الله عبر الإنسان فوجده "ذاته الكبرى الساكنة في الأبدية، التي ينطوي عليها وجوده الأصيل الجوهري، وليس ذاتا منفصلة عن ذاته"[4].

[1]- جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته العربية، ص360.

[2]- جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته المعربة عن الانجليزية، ص10.

[3]- المصدر نفسه، ص393.

[4]- سعيد مكروم، الرؤيا الصوفية للعالم والحياة الإنسانية في النبي لجبران خليل جبران، مجلة حوليات التراث، الجزائر، العدد 02، 2004، ص61.

إن تضحية جبران بالله لا نعني بها أنه أنكر وجود الله أو كفر به، فكلنا نعرف عمق إيمانه بالله وتمسكه بتعاليمه، ومدى حبه ليسوع الناصري الذي غاص في أعماقه بسبب التنشئة الدينية التي نشأ عليها، هو فقط بحث عن الله فعثر عليه متجليا في خلقه، وفي الإنسان الذي بلغ ذاته الكبرى بصفة خاصة، لأن الإنسان هو مركز العالم كما قيل، "والله الحال في الأشياء هو تبعثر مظهري ليكنونة الإنسان، فيدرك هذا الإنسان ذاته البرانية عندما يرى الله حاضرا في الغمام والبرق والمطر وحركة الأشياء"[1].

3-وحدة الأديان:

اهتم الباحثون بفكر جبران الديني نظرا لاحتلاله مكانة مهمة في فكره العام، فلا تخلو كتاباته من بدايتها إلى بلوغ ذروتها من حديث أو إشارة عنه، غير أنهم أجمعوا على صعوبة تحديد الدين الذي يدين به بسبب تشعب آرائه وغموضها، مما أدى إلى تنوع أحكامهم وتعددها: فمنهم من عده مسيحيا بلا منازع، ومنهم من أدخله في الديانات الشرقية، فما هو دينه؟ وأي إله يؤمن به جبران؟

[1]- غسّان خالد، جبران الفيلسوف شخصية العبقري في منافد خلاصها النقد الاجتماعي و البنية الفردوسيةجدلية الانسان و الألوهة، ص230.

إن الدين في مفهوم جبران هو علاقة طبيعية بين الإنسان وربه، وهو يعبر عن حاجة النفس إلى التصديق الجازم بوجود قوة إلهية توفر له الأمان والاستقرار، فهو "عاطفة وضعية مطلقة تنمو بنمو المدارك، وترتقي بارتقاء الأخلاق"[1]، وكلما ازدادت معرفة الإنسان بأموره الباطنية ازداد إيمانه بالله، كما أنه دين حر يكشف المجهول ويجعل الذات تتعرف على نفسها وعلى طاقاتها، فهو ليس ممارسة طقسية في المسجد أو المعبد أو الكنيسة وإنما أفعال تعكس ما يخفى في النفس وتجوهر بالنيات "ولا الدين بما تظهره المعابد وتبينه الطقوس والتقاليد، بل بما يختبئ في النفوس ويتجوهر بالنيات"[2].

لا يفصل جبران بين الدين والحياة بل يجعلهما وجهان لعملة واحدة "أليس الدين كل ما في الحياة من الأعمال والتأملات؟ أليس الدين كل ما في الحياة مما ليس هو بالعمل ولا بالتأمل بل غرابة وعجب ينبعان من جداول النفس أبدا وإن عملت اليدان في نحت الحجارة أو إدارة الأنوال"[3]، فجبران يقرن الدين بالعمل لأنه التعبير الحقيقي والواضح عنه، فهو يعيشه في حياته اليومية بساعاتها ودقائقها، ولا يستطيع أن يفصله عن أعماله اليومية التي يقوم بها، أو يميزه عنها "فمن يستطيع أن يفصل إيمانه عن أعماله، وعقيدته عن مهنته؟ من يستطيع أن يبسط ساعات عمره أمام عينيه قائلا: هذه لله، وهذه لي، هذه لنفسي، وهذه لجسدي؟ فإن جميع ساعات الحياة أجنحة ترفرف في الفضاء منتقلة من ذات إلى

[1]- وهيب كيروز، عالم جبران الفكري، دار بشاريا، بيروت، د ط، 1984م، المجلد الأول، ص161.

[2]- جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته العربية، ص292.

[3]- جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته المعربة عن الانجليزية، ص132.

ذات... وكل من يعتقد أن العبادة نافذة يفتحها ثم يغلقها فهو لم يبلغ بعد هيكل نفسه المفتوحة نوافذه من الفجر إلى الفجر. إن حياتكم اليومية هي هيكلكم وهي ديانتكم"[1].

يرى جبران أن الدين قائم في العمل ومجسد في مختلف أشكال الحياة ومظاهرها، بسيط بعيد عن الغموض، ظاهر أمام كل عين لا يحتاج إلى رجال دين لكي يعلموه، فهو الفطرة الوحيدة والجبلة التي خلقنا الله عليها الذي تعددت رسالاته في الظاهر واتحدت في الباطن، فالإيمان شيء فطري والأديان الموجودة على الأرض لها جوهر واحد هو الذات الإلهية التي ننجذب إليها ونتوق إلى الإتحاد بها.

رفض جبران الانتماء إلى مذهب ديني معين يقيده ويحد من حريته فكل الأديان دينه لأنها واحدة في جوهرها "تقول فكرتكم: الموسوية، البرهمية، البوذية، المسيحية، الإسلام. أما فكرتي فتقول ليس هناك سوى دين واحد مجرد تعددت مظاهره وظل مجردا، وتشعبت سبله لكن مثلما تتفرع الأصابع من الكف الواحدة"[2]، فجبران يؤكد على وحدة الأديان لأنها تنبع من ذات واحدة وبالتالي بدين واحد لا ثاني له، إنه دين إنساني شامل، خال من الأنانية والتعصب، قائم على المحبة الشاملة التي لا تفرق بين مسلم ومسيحي أو بين يهودي وهندوسي، فكلهم يعبدون إلها واحدا تعالى وتسامى عن خلقه، وهذه الأديان الكثيرة في الحقيقة لو جردناها "مما تعلق بها من الزوائد المذهبية والاجتماعية وجدناها دينا واحدا"[3].

إن الإيمان بوجود خالق واحد لهذا الكون ينفي التمايز ويقضي على التناحر والتعصب الديني، ويوحد البشر تحت معبود واحد تعددت مظاهره واتحدت تعاليمه، واختلفت طرق الوصول إليه، لكنها

[1]- المصدر نفسه، ص133.

[2]- جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران نصوص خارج المجموعة، ص89.

[3]- جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته العربية، ص342.

كلها تعتمد على الاستكشاف الباطن الذي يعرف الإنسان بذاته، ويجعله يدرك عظمة معبوده، فتتساوى في نظر المؤمن كل أشكال العبادة وتنتشر المحبة بين الإنسان وأخيه الإنسان "فأنت أخي وأنا أحبك. أحبك ساجدا في جامعك، وراكعا في هيكلك ومصليا في كنيستك، فأنت وأنا ابنا دين واحد هو الروح، وزعماء فروع هذا الدين أصابع ملتصقة في يد الألوهية المشيرة إلى كمال النفس... أنت أخي وأنا أحبك. والمحبة هي العدل بأسمى ظواهره(...) جئت لأحيا بمجد المحبة ونور الجمال"[1]، وهذه المحبة الدينية الشاملة التي يدعو إليها جبران لا يحس بها إلا أصحاب التوحيد الذين يرون الكون في وحدته الكلية، ولا يجزئونه إلى عناصره "فنحن الموحدون، نحن السكارى بخمرة وحدة الحياة وفرديتها، نحن لا نجزئ الأرض إلى شرق وغرب أو إلى قبلة وشمال، ولا نفصل بين عنصر من الناس وعنصر آخر، نحن نرى الطبيعة مظهرا واحدا من مظاهر الله الأوحد."[2]

[1]-المصدر نفسه ، ص199.

[2]- وهيب كيروز، عالم جبران الفكري، ص161.

.

4-الحب والمحبة:

اهتم جبران بالحب واحتل حصة الأسد في كتاباته، وعندما نقول الحب الجبراني لا نقصد به الحب المادي بل الحب الروحاني الإلهي المترفع عن شهوات الجسد:

وَالحُبُ في الناس أَشْكَالٌ وَأَكْثَرُهَا كَالعُشْب في الحَقْل لَا زَهْرٌ وَلَا ثَمَر

وَأَكْثَرُ الحُب مثْلَ الرَاح أَيْسَرُه يُرْضي وَأَكْثَرُه للمدمى الخطر

وَالحُبُ إن قَادَتْ الأَجْسَامُ مَوْكبَهُ إلى فرَاش منَ الأَغْرَاض يَنْتَحر

كَأَنَه مَلكٌ في الأَسْرِ مُعْتَقَل يَأْبَى الحَيَاةَ وَأَعْوَانٌ له غَدَرُوا

لَيْسَ فِي الغَابِ خَلِيع يَدعي نُبْلَ الغَرَام

فَإِذَا الثِيرَانُ خَارَت لَمْ تَقُل هَذَا الهُيَام

إِنَ حُبَ النَاسِ دَاءٌ بَيْنَ لَحْم وَعِظَام

وَالحُبُ فِي الرُوح لَا فِي الجِسْم نَعْرِفُه كَالخَمْرِ لِلْوَحْي لَا للسُكْر يَنْعَصِر[1]

فالحب الإنساني جسدي آني سرعان ما يختفي، عقيم كالعشب النابت لا زهر ولا ثمر، أما الحب الذي يدعو إليه جبران هو حب يحل في الروح قبل الجسد، يسمو على طبيعة اللحم والدم، يتعالى فوق المادة والتراب، لذا وجدناه يترفع عن أي علاقة جسدية مع أي امرأة، فكان في حبه مثل النحلة ينتقل

[1]- جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته العربية، ص ص207-208.

من زهرة إلى زهرة، فهو أراد الحب للحب كما في قصته مع مي (زيادة)، التي أحبها حبا فريدا لا مثيل له، حبا أشبه بالحب الصوفي المترفع عن كل ما هو مادي، أحبها من دون أن يعرفها أو يكحل عينيه بجمالها، وحتى من دون أن يلتقيا وجها لوجه إلا في عالم الفكر والروح، أحبها عبر مراسلات أدبية ألفت بين قلبين وحيدين غريبين خجلا من التصريح بحبهما إلى أن أبى هذا الأخير أن يبقى سرا مكنونا في قلبيهما، فظهر إلى الوجود لا بصريح العبارة بل بالتلميح في قوله: "أنت تحيين فيّ وأنا أحيا فيكِ، أنت تعلمين ذلك وأنا أعلم ذلك"[1]، فجبران أحب (مي) الفتاة العربية التي لم يراها إلا في خياله، وكان حبه لها الحب الوحيد الذي نبض به قلبه ورافقه حتى نهاية عمره، فكانت أقرب النساء إليه على الرغم من المسافة التي تفصل بينهما فهو كان في أمريكا وهي كانت في مصر "أنت أقرب الناس إلى روحي، وأنت أقرب الناس إلى قلبي ونحن لم نتخاصم قط بروحينا أو بقلبينا، لم نتخاصم بغير الفكر والفكر شيء مكتسب، شيء نقتبسه من المحيط، من المرئيات، من مآتي الأيام. أما الروح والقلب فقد كانا فينا جوهرين علويين قبل أن نفتكر... فلا تخافي الحب يا ماري، لا تخافي الحب يا رفيقة قلبي، علينا أن نستسلم إليه رغم ما فيه من الألم والحنين والوحشة ورغم ما فيه من الإلتباس والحيرة"[2].

وفي قصة (الأجنحة المتكسرة) نراه يقدس الحب إلى درجة كبيرة حتى جعله أساسا للحياة، يعيد الإنسان إلى فطرته الأولى ويحرره من قيود الجسد ويقربه من الله، فالإنسان الذي يحب كالمتعبد الناسك يتخلى عن كل شيء ليحظى برفقة محبوبه، فيتجاوز الجسد وشهواته المظلمة والدنيا ومتطلباتها، وتنار نفسه بشعلة شوقه إلى الحنان المطلق والحب اللاانهائي الذي لا يفسد لا الرجل ولا المرأة، لأنه "حب

[1]- جميل جبر، جبران خليل جبران في حياته العاصفة، ص238.

[2]- سلمى الحفار الكزبري وسهيل بشروئي، الشعلة الزرقاء- رسائل جبران خليل جبران إلى مي زيادة، ص33.

علوي لا يعرف الحسد لأنه غني، ولا يوجع الجسد لأنه في داخل الروح. ميل قوي يغمر النفس بالقناعة، مجاعة عميقة تملأ القلب بالإكتفاء، عاطفة تولّد الشوق ولكنها لا تثيره"[1]، إنه نور الكون على هداه نسير، وبه نتعلم ما دام هو "معرفة علوية تنير بصائرنا فنرى الأشياء كما تراها الآلهة"[2].

لذلك كان جبران يزور سلمى كرامة "كمتصوف جذبته السماء إلى مسارح الرؤيا"[3]، وأحبها حبا صوفيا بعيدا عن شهوانية الجسد، ويتضح ذلك في وصفه لها: "كانت سلمى نحيلة الجسم تظهر بملابسها البيضاء الحريرية كأشعة قمر دخلت من النافذة، وكانت حركاتها بطيئة متوازنة أشبه شيء بمقاطيع الألحان الأصفهانية، وصوتها منخفضا حلوا تقطعه التنهدات، فينسكب من بين شفتيها القرمزيتين مثلما تتساقط قطرات الندى عن تيجان الزهور بمرور تموجات الهواء، وجهها —ومن يا ترى يستطيع أن يصف وجه سلمى كرامة؟... بأية لغة نقدر أن نتكلم عن ملامح تعلن في كل دقيقة سرا من أسرار النفس وتذكر الناظرين إليها بعالم روحي بعيد عن هذا العالم! إن الجمال في وجه سلمى لم يكن منطبقا على المقاييس التي وضعها البشر للجمال، بل كان غريبا كالحلم أو كالرؤيا أو كفكر علوي لا يقاس ولا يحد ولا ينسخ بريشة المصوّر، ولا يتجسم برخام الحفار، جمال سلمى لم يكن في شعرها الذهبي بل في هالة الطهر المحيطة به. ولم يكن في عينيها الكبيرتين بل في النور المنبعث منهما... جمال سلمى لم يكن في كمال جسدها بل في نبالة روحها الشبيهة بشعلة بيضاء متقدة سابحة بين الأرض واللانهاية"[4]، وعندما يلتقيها يبقى صامتا لساعات يتأمل وجهها الملائكي واجدا في ذلك لذة تفوق الكلام، وحتى بعد زواجها لم يجد

[1]- جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته العربية، ص116.
[2]- ثريا عبد الفتاح ملحس، القيم الروحية في الشعر العربي قديمه وحديثه، ص325.
[3]- جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته العربية، ص116.
[4]- جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته العربية ، ص108.

حرجا في لقائها عند المعبد القديم، لأنهما كانا كملاكين يؤديان فرضا من فروض العبادة، بريئان لم يقترفا ذنبا، ولم يحسا بتأنيب الضمير "لأن النفس إذا تطهرت بالنار واغتسلت بالدموع تترفع عما يدعوه الناس عيبا وعارا وتتحرر من عبودية الشرائع والنواميس التي سنتها التقاليد لعواطف القلب البشري وتقف برأس مرفوع أمام عروش الآلهة"[1]، غير أن سلمى ومن شدة حبها لحبيبها تضحي بذلك الأمل الذي كانت تعيش عليه عند ملاقاته، فتتوقف عن رؤيته خوفا عليه وحماية له من بطش (المطران بولس غالب)، فتفديه بروحها ممنية نفسها ببلوغ المحبة الأبدية ذلك أن "المحبة المحدودة تطلب امتلاك المحبوب، أما المحبة غير المتناهية فلا تطلب غير ذاتها، المحبة التي تجيء بين يقظة الشباب وغفلته تستكفي باللقاء وتقنع بالوصل...، أما المحبة التي تولد في أحضان اللانهاية وتهبط مع أسرار الليل فلا تقنع بغير الأبدية ولا تستكفي بغير الخلود ولا تقف متهيبة أمام شيء سوى الألوهية"[2].

لم يُرد جبران حبا عاديا بل حبا روحيا شاملا لا ينتهي ولا يتغير كما "الحجر في الماء فلا يركد فيأسن"[3]، لذا ألفيناه يحب نساء عدة لأن واحدة لا تستوعب حبه الكبير، ولما رأى المرأة ترمز إلى الحياة نظر إليها نظرة مطلقة خيالية بحث عنها كما رآها فلم يجدها، ووجّه حبه الكبير نحو الحياة، فقال في مقال (قبل الإنتحار): "في هذه الغرفة المنفردة الهادئة قد جلست بالأمس المرأة التي أحبها قلبي، إلى هذه المساند الوردية الناعمة قد ألقت رأسها الجميل، ومن هذه الكأس البلورية قد شربت جرعة من الخمر ممزوجة بقطرة من العطر... إن آثار أصابع المرأة التي أحبها قلبي لم تزل ظاهرة على بلور مرآتي، وعطر

[1]- المصدر نفسه، ص131.

[2]- جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته العربية ، ص134.

[3]- جميل جبر، جبران في عصره وآثاره الأدبية والفنية، ص45.

أنفاسها ما برح متضوعا بين طيات أثوابي، وصدى صوتها لم يضمحل بعد من زوايا منزلي. ولكن المرأة نفسها –المرأة التي أحبها قلبي– قد رحلت إلى مكان قَصي يدعى وادي الهجر والسلوان، أما آثار أصابعها وعطر لهاثها وأشباح روحها فستبقى في هذه الغرفة حتى صباح الغد وعند ذلك أفتح نوافذ منزلي لتدخل أمواج الهواء وتجرف بتيارها كل ما تركته لي تلك الساحرة الحسناء... إن المرأة التي أحبها قلبي... هي مخلوقة عجيبة صنعتها الآلهة من وداعة الحمامة وتقلبات الأفعى وتيه الطاووس وشراسة الذئب وجمال الوردة البيضاء وهول الليلة السوداء مع قبضة من الرماد وغرفة من زبد البحر... إنها الحياة. فالحياة امرأة ساحرة حسناء تستهوي قلوبنا"[1]، والقليل من الحب لم يُرْض جبران الطامع إلى الكمال، إلى الحب الإلهي الذي يوصله إلى نور الله.

لم تستهو المرأة جبران بجسدها بل بطهرها ونقائها، لذا أحب امرأة خيالية من بلاد الجن ليس لها وجود، فكان حبه حلما يجسد كل ما في الطبيعة من تناقضات وثنائيات، خالدا لا ينمحي بانمحاء الأشخاص لأن "المحبة باقية ولن تمحى آثار أصابعها"[2]، مقدسا يودعه الله في النفوس، ولا يستطيع القلب البشري أن يبدعه دون مشيئة الخالق "لأن المحبة هي قوة تبتدع قلوبنا، وقلوبنا لا تقدر أن تبتدعها"[3]، وكثيرا ما صرّح جبران لماري أنه لا يشعر بشهوة أو نزوة عندما يرسم أجسام النساء العاريات بل يقف أمامها وكأنه يقف أمام روح علوية تتجسد أمامه في جسد امرأة حسناء، فيمعن في تأملها واكتشاف خفايا خطوط جسمها.

[1]– جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته العربية، ص ص227–228.

[2]– جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته المعربة عن الانجليزية، ص394.

[3]– جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته العربية، ص56.

.

يؤكد جبران أن الحب قوة إلهية تمنح الإنسان قدرة فائقة على تجاوز كل المصاعب والعقبات، وعلى لجم شهوات النفس ونزواتها "فيا أيتها المحبة العادلة، يا من كبحت جماح رغائبي بيدك القديرة، وحولت مجاعتي وعطشي إلى إباء وشمم، لا تأذني للقوي العزوم في أن يأكل الخبز، أو يشرب الخمر، الذين يستهويان ذاتي الضعيفة. ذريني بالأحرى فأقضي جوعا، بل دعي قلبي يلتهب عطشا، واتركيني أموت وأفنى قبل أن أمد يدي لقدح لم تملئيه أو كأس لم تباركيها"[1]، فمحبة جبران محبة سامية مرتبطة بمنابع إلهية، يقدسها ولا يقوى على مخالفتها، ولا تثير فيه الخوف بل تقوده إلى النور وتحرره من قيوده، فيسير حرا طليقا نحو السماء أما نظرته إلى المرأة فنظرة متعالية فيها من التبجيل والتقديس ما لا يمكن وصفه، وهو القائل عن نفسه "أنا مديون بكل ما هو (أنا) للمرأة- منذ كنت طفلا حتى الساعة، والمرأة تفتح النوافذ في بصري والأبواب في روحي- ولولا المرأة الأم والمرأة الشقيقة أو المرأة الصديقة لبقيت هاجعا مع هؤلاء الناقمين الذين يشوشون سكينة العالم بغطيطهم"[2]، فستظل وتبقى "أبدا رحما ومهدا، ولن تكون رمسا"[3].

إلى جانب المرأة أحب جبران وطنه بطبيعتها وسكانها، فما تمر عليه لحظة وهو في بلاد الغربة إلا وتتراءى له صور أوديتها وحفيف غصونها، وهدير مجاريها، وعتاقة معابدها وهياكلها، فلقد عشق وطنه إلى درجة الهيام وكانت طبيعته مصدر إلهام له، ودائمة الحضور في إبداعاته، وفي مقال (لكم لبنانكم ولي لبناني) يتحدث عن وطنه لبنان الخال من الخلافات والصراعات السياسية والاجتماعية، ولكنه مع ذلك

[1]- جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته العربية ، ص51.

[2]- جميل جبر، جبران خليل جبران في حياته العاصفة، ص257.

[3]- جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته المعربة عن الانجليزية، ص225.

يطفح قلبه بحب بلاده كيفما كان فيقول: "أحب بلادي وللحب ألف عين ترى وألف أذن تعي. أحب بلادي عليلة... أحب بلادي... وليس في حبي ما يوحي الهيام والافتتان بل هناك قوة عذبة بسيطة لا تتغير ولا تتحول ولا تطلب شيئا لنفسها"[1]، ومن محبته لوطنه ينتقل إلى أهله فيثور ويحارب كل مظاهر الظلم والطغيان، وفي مقالة (مات أهلي) نلمس تلك المحبة والرقة والمرارة التي شعر بها إزاء أوضاعهم، فتمنى لو كان سنبلة من القمح أو ثمرة يانعة في بساتين لبنان تتناولها امرأة جائعة، أو طائر في فضاء لبنان يصطاده صياد جائع فيقتات به"[2].

لم تكن محبة جبران محدودة بزمان أو مكان أو عرق أو دين، بل كانت محبة شاملة شعر بها اتجاه كل إنسان على وجه الأرض، وهو ما أتعبه وجلب له الملامة، فيقول في رسالة كتبها لمي: "يقولون لي يا (مي) إنني من محبي الناس، ويلومني بعضهم لأنني أحب جميع الناس، نعم أحب جميع الناس، أحبهم بدون انتخاب وبدون غربلة، أحبهم كتلة واحدة، أحبهم لأنهم من روح الله"[3]، فكل إنسان هو أخوه أو صورته في الوجود الواحد الذي لا تجزؤ فيه.

مرت محبة جبران من خلال مؤلفاته العربية والإنجليزية بأربع مراحل، وكل مرحلة تميزت بسمة خاصة ، ففي مرحلة التمرد وجدناه يهاجم الكهنة ورجال الدين الذين مصوا دماء الفلاحين، والحكام الذين لم يعدلوا بين الناس فخلقوا الطبقية، فحفر لهم قبورا تواري سوء صنيعهم وتريح الناس من إقطاعهم وتعسفهم، ثم واصل ثورته فحارب اللؤم والجهل والضعف والتحجر، وصرخ في الناس بشدة ومرارة لعلهم

[1]- جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران نصوص خارج المجموعة، ص46.

[2]- ينظر: جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته العربية، ص251.

[3]- جميل جبر، جبران خليل جبران في حياته العاصفة، ص240.

يستيقظون من سباتهم فينفضوا الغبار عنهم ويطالبوا بحقوقهم، وهذه الكراهية الظاهرة ما هي في الحقيقة إلا محبة كبرى للإنسانية، ولو أنها تبدو من الوهلة الأولى مقت وحقد وخاصة عندما يقول: "أنا أكرهكم يا بني أمي لأنكم تكرهون المجد والعظمة. أنا أحتقركم لأنكم تحتقرون نفوسكم، أنا عدوكم لأنكم أعداء الآلهة"[1]، فمقته الظاهر ما هو في الواقع إلا حب مقدس مخلص، وهو الذي يبرر في موقع آخر سبب هذا الشعور فيقول: "لا بأس في ذلك، فإني سأحبهم أكثر فأكثر، ولكني سوف أسدل على محبتي ستارا من البغض، وأستر عطفي بشديد كرهي وسأتبرقع ببرقع من حديد، ولا أسعى وراءهم إلا مسلحا مدرعا"[2].

وفي المرحلة الثانية نراه يشعر بالغربة في وطن واحد وأمة واحدة، فالأرض كلها وطنه والعائلة البشرية عشيرته، لأن الإنسان ضعيف عندما ينقسم على ذاته، والأرض ضيقة إذا جزؤوها، وعلى البشر أن يتحدوا تحت كلمة واحدة هي المحبة التي يحيوا بحياتها ويموتوا بموتها، فنحن إخوة وأبناء لروح واحدة قدسية[3].

أما المرحلة الثالثة فيكشف فيها جبران عن محبته الشاملة التي كادت مرحلة التمرد أن تقضي عليها وتشوه معناها، وتغير غايتها المتمثلة في إصلاح الناس ومجتمعاتهم لما فيه خير لهم، معتقدا أن أسلوب التقريع، قد ينفعهم أكثر من أسلوب التفجع والتوجع معهم، فبعد أن يأتي بالرفش ليحفر قبورا لهم وقلبه ينزف ألما عليهم، نراه يعلن لهم محبته الشاملة قائلا: "يا إخوتي وجيراني، ويا أيها المارون ببابي في

[1]- جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته العربية، ص230.

[2]- جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته المعربة عن الانجليزية، ص76.

[3]- ينظر: جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته العربية، ص198.

كل يوم، إنني أود أن أناجيكم في نومكم، وفي وادي أحلامكم أود أن أمشي مطلقا عاريا، فإن ساعات يقظتكم أشد غفلة من نومكم، وآذانكم المثقلة بالضجيج كليلة صماء. لقد أحببتكم كثيرا وفوق الكثير. قد أحببتكم الواحد منكم كما لو كان كلكم، وأحببتكم جميعا كما لو كنتم واحدا... أجل، قد أحببتكم جميعكم، جباركم وصعلوككم، أبرصكم وصحيحكم، وأحببت من يتلمس منكم سبيله في الظلام، كمن يرقص أيامه على الجبال، والآكام. أحببتك أيها القوي، مع أن آثار حوافرك الحديدية لا تزال ظاهرة في لحمي، وأحببتك أيها الضعيف على رغم أنك جففت إيماني وعطلت علي صبري، أحببتك أيها الغني، في حين أن عسلك كان علقما في فمي. وأحببتك أيها الفقير مع أنك عرفت عوزي وفراغ ذات يدي..."[1]، ولا يكتفي جبران بذلك بل يجعل نفسه شمعة تحترق لتنير درب الآخرين، ويؤثرهم على نفسه فيطلب من الله أن يجعله فريسة الأسد قبل أن تجعلهم فريسة له، فمحبته حرة مثالية لا تريد شيئا دنيويا لنفسها، تعطي بلا حساب ومن دون أن تنتظر مقابلا.

وفي المرحلة الرابعة تلتهب شعلة الحب في قلبه نحو العالم، فيرغب في أن يضحي بنفسه من أجلهم كما ضحى يسوع من قبل، فيحبهم ويتألم في محبته كالصوفيين الذين يتلذذون بالألم لأنه طريقهم إلى الله، وكذلك جبران يتلذذ بتألمه في محبته لأنه يعرف أنها ستحرره ليصير روحا طليقة تعبد المحبة وتدعو الناس إليها وتحثهم على التجلد بالصبر لأن طريقها وعرة المسلك فيقول:

"إذا أشارت المحبة إليكم فاتبعوها،

وإن كانت مسالكها صعبة متحدرة،

[1]- جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته المعربة عن الانجليزية، ص74.

وإذا ضمتكم بجناحيها فأطيعوها،

وإن جرحكم السيف المستور بين ريشها،

وإذا خاطبتكم المحبة فصدقوها،

وإن عطّل صوتها أحلامكم وبددها كما تجعل الريح الشمالية البستان قاعا صفصفا. لأنه كما أن المحبة تكللكم فهي أيضا تصلبكم،

وكما تعمل على نموكم، هكذا تعلمكم وتستأصل الفاسد منكم،

وكما ترتفع إلى أعلى شجرة حياتكم فتعانق أغصانها اللطيفة المرتعشة أمام وجه الشمس،

هكذا تنحدر جذورها الملتصقة بالتراب وتهزها في سكينة الليل"[1].

ويرى جبران أن المحبة مرتبطة بكل ما في الحياة وبخاصة العمل المتقن الذي يفتح قلب الإنسان ويقربه من الحقيقة العميقة الدفينة في الحياة، فيحبها ويقبل عليها من دون أن يخاف من ظلمتها، وحين نجعل المحبة قاعدة لحياتنا تتبدد ظلمة الدنيا التي حدثنا عنها أجدادنا، "لأن الحياة تكون بالحقيقة ظلمة حالكة إذا لم ترافقها الحركة.

والحركة تكون عمياء لا بركة فيها إن لم ترافقها المعرفة.

والمعرفة تكون عقيمة سقيمة إن لم يرافقها العمل.

[1]- جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته المعربة عن الانجليزية ، ص87.

والعمل يكون باطلا وبلا ثمر إن لم يقترن بالمحبة، لأنكم إذا اشتغلتم بمحبة فإنما تربطون أنفسكم وأفرادكم بعضها ببعض، ويرتبط كل واحد منكم بربه"[1]، ويواصل جبران حديثه فيعرفنا على العمل المقرون بالمحبة بقوله: "هو أن تحوك الرداء بخيوط مسحوبة من نسيج قلبك مفكرا أن حبيبك سيرتدي ذلك الرداء.

هو أن تبني البيت بحجارة مقطوعة من مقلع حنانك وإخلاصك مفكرا أن حبيبك سيقطن في ذلك البيت...

هو أن تضع في كل عمل من أعمالك نسمة من روحك،

وتثق بأن جميع الأموات الأطهار محيطون بك يراقبون ويتأملون"[2].

ويستمر جبران في إلحاحه على اقتران العمل بالمحبة لأنه الصورة الظاهرة لهذه الأخيرة، فالمحبة شعور يختلج الفؤاد، وإذا لم نعبر عنها بأعمالنا تبقى دفينة فيه لا أحد يحس بها، وفي هذه الحالة لا فائدة ولا نفع يرجى منها، أما إذا أظهرناها في أعمالنا فكل الخير العميم سيعمنا، كما أن العمل عبادة وإذا لم تتمكن من إنجاز عملك بمحبة فاتركه لأنك حينذاك ستنجز شرا يؤذيك ويؤذي غيرك، و"إذا لم تقدر أن تشتغل بمحبة وكنت متضجرا ملولا فالأجدر بك أن تترك عملك وتجلس على درجات الهيكل تلتمس صدقة من العملة المشتغلين بفرح وطمأنينة.

لأنك إذا خبزت خبزا وأنت لا تجد لك لذة في عملك، فإنما أنت تخبز علقما...

[1]- جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته المعربة عن الانجليزية ، ص97.

[2]- المصدر نفسه ، ص98.

وإذا تذمرت وأنت تعصر عنبك فإن تذمرك يدس لك سما في الخمرة المستقطرة من ذلك العصير"[1].

تتميز محبة جبران بالصدق والتصاقها بالفطرة الإنسانية، وعملها على تنمية الخير الموجود في قلب البشر واستئصال الشر منه، فتطهره وتنقيه عبر مراحل عديدة هي أشبه بالخطوات التي يقطعها الإنسان ليعد قطعة خبز "فالمحبة تضمكم إلى قلبها كأغمار الحنطة.

وتدرسكم على بيادرها لكي تظهر عريكم.

وتغربلكم لكي تحرركم من قشوركم.

وتطحنكم لكي تجعلكم أنقياء كالثلج.

وتعجنكم بدموعها حتى تلينوا،

ثم تعدكم لنارها المقدسة لكي تصيروا خبزا مقدسا يقرب على مائدة الرب المقدسة"[2].

إن محبة جبران هي محبة صوفي بلغ ذروة الحب، فجاد بنفسه في سبيل معرفة ذلك الجوهر الأزلي العظيم الذي عشقه وهام شوقا لرؤيته، وبذل كل ما في وسعه ليكون في قلبه، فتسلح بسلاح المحبة التي "لا تعطي إلا نفسها، ولا تأخذ إلا من نفسها"[3]، وأعطى مما عنده كما يعطي الريحان عبير العطر في الوادي، وكما تعطي الأشجار في البساتين كي تحيا، لأنه ليس بين العطاء والمحبة من فاصل، فالذي يحب

[1]- جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته المعربة عن الانجليزية ، ص ص97-98.

[2]- جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته المعربة عن الانجليزية ، ص88.

[3]- المصدر نفسه، ص88.

يصبح في قلب الله فلا يفرق بين إنسان وإنسان، ولا يبخل بشيء عنده على أخيه لأنه ليس هو الذي يعطي بل "الحياة هي التي تعطي للحياة، في حين أنك... لست بالحقيقة سوى شاهد بسيط على عطائك"[1].

مما سبق نستنتج أن محبة جبران هي مشابهة لمحبة يسوع التي جعلها عماد الديانة المسيحية، وسعى إلى نشرها وتحلي الناس بها، لأنها ترفع الإنسان من حياته العادية، وتستفزه ليتغلب على شهوات ذاته الصغرى، وحين يحقق ذلك يبلغ ذاته العظمى المزروعة فيه.

5-الجمال:

يعد الجمال أحد المفاهيم التي أرّقت عقول الفلاسفة والمفكرين، فكثر الحديث عنه وتفرق وتشعب، والذي يهمنا في هذا المقام ليس عرض أقوالهم فيه، بل تبيين مفهوم الجمال وخصائصه عند جبران الذي اهتم به وجعله ضالته المنشودة، على الرغم من أن كتاباته عنه كانت قليلة جدا، مما يجعل القارئ من النظرة الأولى يظن أن ليس في أدبه نظرية جمالية، لكن جبران تناول موضوع الجمال في بعض كتبه بشكل موجز ولكن بمعان عميقة.

يرى جبران أن الناس قد تباينوا في تعريف الجمال وضبط أسسه، فعرّفه كل شخص حسب حالته النفسية وحاجته غير المكملة "فالحزين المتألم يقول: الجمال رقة ولطف وهو يمشي بيننا كالأم الفتية الحيية

[1]- المصدر نفسه، ص94.

إن الجمال حقيقة روحية إلهية خالدة مجسدة في أسرار الكون، قوة مخيفة رهيبة من جهة مريحة مطمئنة من جهة أخرى، يصعب حصرها أو التعبير عنها لـ"أن للجمال لغة سماوية تترفع عن الأصوات والمقاطع التي تحدثها الشفاه والألسنة، لغة خالدة تضم إليها جميع أنغام البشر وتجعلها شعورا صامتا مثلما تجتذب البحيرة الهادئة أغاني السواقي إلى أعماقها وتجعلها سكوتا أبديا"[1]، فيقف الإنسان أمامها محتارا وهو يحاول تحديدها وترجمتها إلى ألفاظ لكن دون جدوى، الجمال قوة خفية لا يراها إلا من بلغ كنه الحياة ووصل إلى درجة الكمال، فيصبح الجمال في نظره هو "الأبدية تنظر إلى ذاتها في مرآة"[2]، فينسى الإنسان أنه كائن فان في يوم من الأيام لأنه يقف أمام روض تزينه الأزهار إلى الأبد وفرقة من الملائكة ترفرف بأجنحتها إلى نهاية الدهر، وأمام أبدية الجمال ولا نهايته ولا محدوديته يتغلب الإنسان على خوفه من الموت ويصبح لديه بشرى بولادة ثانية وحياة جديدة.

ويعتقد جبران أن الجمال هو جمال الروح لا جمال البدن فمتى كانت الروح جميلة طيبة فسوف ينعكس نورها لا محالة على مظهرها، كما دعانا إلى عدم الحكم على الناس بمظاهرهم لأن المظهر يخفي أكثر مما يبدي، فذات مرة التقى الجمال والقبح على شاطئ البحر، فدعيا بعضهما لخوض عباب البحر، وخلعا ملابسهما ثم سبحا، وبعد مدة قليلة رجع القبح إلى ضفة الشاطئ وارتدى ملابس الجمال وذهب في حال سبيله، وحين عاد الجمال إلى الضفة لم يجد ملابسه، فخجل من أن يبقى عاريا وقرر ارتداء ملابس القبح ثم مضى في حال سبيله أيضا، ومنذ ذلك الحين صار القبح جمالا في الظاهر والجمال قبحا

[1]- جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته العربية، ص107.

[2]- جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته المعربة عن الانجليزية، ص131.

في الظاهر أيضا"[1]، وجبران ساق هذه القصة في كتابه (التائه) ليدلل على أن الجمال محله الروح لا الجسد، وهو أحب سلمى لنبالة روحها وطهرها لا لجمال جسدها.

كما يحظى الجمال عند جبران بأهمية كبيرة إلى درجة أنه جعله دينا شاملا تتحد كل أجناس البشر تحت رايته، فيحررهم من ذواتهم الضيقة ويجعلهم يتوقون إلى الحرية الكبرى التي لا يحدها دين ولا عرق ولا وطن ولا لغة فيقول: "اتخذوا الجمال دينا واتقوه ربا... انبذوا الألى قبلوا التدين لهوا وآلفوا بين طمعهم بالمال وشغفهم بحسن المآل وآمنوا بألوهية الجمال"[2] الذي تراءى "لآدم بجسم حواء فاستعبدته وظهرت لسليمان في قدّ حبيبته فصيرته حكيما وشاعرا"[3].

ويُدْرَك الجمال عنده بالتأمل والاستكشاف الباطن فلا يصل إليه إلا المتمعن الذي زهد بماديات الدنيا وانعتق من حبالها، وغاص في أعماق ذاته ليتفاجأ بالجمال قابعا في قاع نفسه فيتهلل ويتسبح به كأنه آية مقدسة لا يليق بها إلا التهليل والتسبيح، فـ"تهللوا يا أيها الذين أنزلت عليهم آيات الجمال وافرحوا إذ لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون... وسبحوا إن الجمال يُسّر بالمسبحين"[4]، وهنا يظهر البعد الصوفي للجمال الجبراني.

كانت هذه أهم مظاهر نزعة جبران إلى التصوف، جبران الذي أعرض عن تفاهات الدنيا ونظر إليها نظرة عابر سبيل سرعان ما يتركها ويواصل طريقه، فركز جهده وعمله على البحث في أسرار الحياة

[1]- ينظر: جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته المعربة عن الانجليزية ، ص398.
[2]- جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته العربية، ص151.
[3]- جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته العربية ، ص195.
[4]- المصدر نفسه، ص152.

واكتشاف جوهرها، وتفادى كل ما يلهيه عن هدفه، وهذا راجع إلى أنه يريد أن يترك من وراءه أدبا روحيا صافيا وسيرة طيبة حسنة يخلدها التاريخ ولا يدفنها بين طياته. فدعا إلى نشر الخير والتعاون والحرية والمحبة، وحارب الطبقية والظلم والتعسف، وركّز حديثه على حقيقة وحدانية الله، وعكف على نفسه يطهرها وينقيها حتى تخلقت بأخلاق الأنبياء، فأتانا بالنبي جوهرته العتيقة التي تمثل عصارة فكره وحياته، والتي تفوح بروحانية كان الغرب المادي في أمس الحاجة إليها، فلقي عندهم الإعجاب والقبول وحقق نسبة مبيعات لم يسبق أن حظي بها أي كتاب من كتبه.

صحيح أن جبران لم يكن متصوفا بالمعنى العام الذي نعرفه ولم يسلك طريق المتصوفين من قهر الجسد وإماتة شهواته والتقشف ولبس ما خشن لمسه، لكننا وجدنا في كتاباته بذورا وميولا لمذهب الصوفية مبعثرة هنا وهناك، فحاولنا قدر الإمكان لملمة الواضح منها، وكانت أن تبلورت في هذا الفصل تحت خمس نقاط، وتجاوزنا الميولات الشاذة التي لم ترد إلا نادرا والتي لفها غموض وإبهام كبير فلم نود الخوض فيها.

وعندما نسمع جملة (ميول جبران إلى الصوفية) لا نقصد بها الصوفية الإسلامية فقط بل الصوفية بمعناها العام العالمي، وذلك ناتج عن سعة اطلاعه على ثقافات متعددة شرقية وغربية، أخذ منها ما يلائمه وما استهوته نفسه وأخضعها لمعصرته، ليخرج لنا منها نتاجا جبرانيا خالصا ذا سمات صوفية.

الفصل الثالث: خصائص أسلوب أدب جبران الصوفي.

توطئة :

لم تعد القوالب الأدبية القديمة تروق لجبران، كما لم تعد قادرة على الإفصاح عما يجول في خاطره و ذلك لأن "روح الأمس قد انقضت وصوت الأمس لم يعد أكثر من صدى... وسيكون للغد روحه الخاصة به، وصوته الخاص به... والزمن لن يمشي إلى الخلف"[1]، فثار على الطرق القديمة التي رضيت بالجمود والتحجر، وراح يبحث عن قوالب تعبيرية جديدة تتلائم مع طاقاته وقدراته الإبداعية الفائقة، وتضمن له التعبير الحر المنفلت من كل قيد نحوي أو صرفي أو عروضي، فتطلق الأقلام على سجيتها، وتحقق التلاحم بين الشكل والمضمون، فأطل على الأدب بمؤلفات رائعة لم يعرف الشرق لها مثيلا.

تحرر جبران من كل القيود التعبيرية التي كانت تقف عائقا أمامه، وأنشأ أسلوبا خاصا به شد انتباه النقاد العرب لألفاظه العذبة وتعابيره البسيطة وخيالاته الجميلة المبتكرة، وبيانه الصافي المترقرق، وتنوعه المتلائم مع كل غرض أدبي يكتب فيه، فنراه "تارة يخاطب الأرواح والقلوب بلغته الوجدانية، العظيمة البث والإيحاء، الغنية الصور والألوان الشعرية كما في (دمعة وابتسامة) و (الأجنحة المتكسرة). وتارة يخاطب العقول بالأمثال كما في (المجنون والسابق). وتارة يلجأ إلى أسلوب الحوار التمثيلي كما في (المواكب). وتارة يتحدث بالرموز كما في (آلهة الأرض). وتارة يمزج بين أسلوبين أو أكثر كما في كتاب

[1]- توفيق صايغ، أضواء جديدة على جبران، ص ص 126-147.

(النبي) الذي يمزج فيه بين الوجدانية الرومانسية والرمزية التي يلتبس معناها أحيانا ولكنها برغم ذلك تترك في روح القارئ شعورا قريرا بجمال أسلوبها وروعة صورها"[1].

ينبع أسلوب جبران الجديد من قلب المؤلف ويتجه إلى قلب القارئ، وصارت الكتابة عنده وسيلة حوار بين قلبين أو مشاركة وجدانية يطغى عليها الإعتراف وتعرية الذات، فلم يعتمد على كل ما هو مقنن بل جعل فطرته وعفويته ومحبته الحقة موجهه ومرشده في مخاطبة العقول والقلوب، فاتسم أدبه عامة وأدبه ذو الميول الصوفية خاصة بسمات فريدة على مستوى اللغة والصور والرموز والموسيقى، فما هي هذه السمات والمميزات التي طبعت أسلوبه الصوفي؟

1-اللغة:

يقول جبران في مقال (مستقبل اللغة العربية): "إنما اللغة مظهر من مظاهر الابتكار في مجموع الأمة، أو ذاتها العامة فإذا هجعت قوة الابتكار توقفت اللغة عن مسيرها، وفي الوقوف التقهقر وفي التقهقر الموت والاندثار"[2]، فاللغة هي التي ترسم آفاق المستقبل، وذلك متوقف على قوة الابتكار، فاذا أبدع الشاعر تطورت وازدهرت ورسمت لنفسها مستقبلا زاهرا، وإذا جمد خياله وأسِن عاشت في أصدائها البالية فتتقهقر وتندثر، لذا كثيرا ما رأينا جبران يلح إلحاحا شديدا على ضرورة ابتكار صور وتعابير لغوية لم تر النور بعد، تعابير تنبع من ذاتية الشاعر إذ هو "أبو اللغة وأمها تسير حيثما يسير وتربض أينما يربض... فالشاعر هو الوسيط بين قوة الابتكار والبشر، وهو السلك الذي ينقل ما يحدثه عالم النفس

[1]- طنسي زكا، بين نعيمة وجبران، ص ص56-57.

[2]- جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته العربية، ص325.

إلى عالم البحث، وما يقرره عالم الفكر إلى عالم الحفظ والتدوين... أعني بالشاعر كل مخترع صغيرا كان أو كبيرا... أعني بالشاعر ذلك الزارع الذي يفلح حقله بمحراث يختلف ولو قليلا عن المحراث الذي ورثه عن أبيه فيجيء بعده من يدعو المحراث الجديد باسم جديد، وذلك البستاني الذي يستنبت بين الزهرة الصفراء والزهرة الحمراء زهرة ثالثة برتقالية اللون فيأتي بعده من يدعو الزهرة الجديدة باسم جديد"[1].

وتتطلب اللغة من الشاعر أن يحوك لها أثوابا جديدة تليق بوضعها وفكرها الجديد، لذلك نظر جبران إليها نظرة حرّة، فهي بالنسبة له آية المستقبل كائنة فيه ومتجسدة في مظاهره، فخرج عن اللغة المتحجرة وانفصل عنها، وجعل لنفسه لغة خاصة به رسم ملامحها في مقال (لكم لغتكم ولي لغتي) والذي جاء فيه: "لكم من اللغة العربية ما شئتم، ولي منها ما يوافق أفكاري وعواطفي، لكم منها الألفاظ وترتيبها، ولي منها ما تومئ إليه الألفاظ ولا تلمسه، ويصبو إليه الترتيب ولا يبلغه.لكم منها القواميس والمعجمات والمطولات، ولي ما غربلته الأذن وحفظته الذاكرة من كلام مألوف مأنوس تتداوله ألسنة الناس في أفراحهم وأحزانهم... لكم من لغتكم البديع والبيان والمنطق، ولي من لغتي نظرة في عين المغلوب، ودمعة في جفن المشتاق، وابتسامة على ثغر المؤمن، وإشارة في يد السموح الحكيم. لكم منها ما قاله سيبويه والأسود وابن عقيل ومن جاء قبلهم وبعدهم من المضجرين المملين، ولي منها ما تقوله الأم لطفلها، والمحب لرفيقته، والمتعبد لسكينة ليله.. لكم منها ماضيها وما كان في ماضيها من الأمجاد والمفاخر، ولي منها حاضرها ومستقبلها بما في حاضرها من التأهب وما سيكون في مستقبلها من الحرية

[1]- المصدر نفسه، ص ص328-329.

والاستقلال... لكم لغتكم عجوزا مقعدة، ولي لغتي غارقة في بحر من أحلام شبابها. وما عسى أن تصير إليه لغتكم وما أودعتموه لغتكم عندما يرفع الستار عن عجوزكم وصبيتي؟

أقول إن لغتكم ستصير إلى اللاشيء

... أقول إن الحياة لا تتراجع إلى الوراء

أقول إن أخشاب النقش لا تزهر ولا تثمر"[1]

يبين جبران في هذا النص السابق تصوره حول اللغة التي يريد أن يجسدها في كتاباته، فهجر القوالب المحنطة التي لا زالت مستعملة عند بعض الشعراء المعاصرين كتشبيه الوجه الحسن بالشمس أو البدر، والعيون بعيون المها، ورشاقة الجسم بخفة الغزال، وما إلى ذلك من الصور البدائية التي لا تتماشى مع روح العصر، كما انعتق من لغة القواميس والمعجمات وصار يكتب بما هو محفوظ في ذاكرته ومتداول في الألسنة بمفردات لا تتجاوز أربعمائة كلمة يبدع فيها، فينزع ويضيف بحسب ما تمليه عليه نفسه، ويجمل من دون تصنع، ويجدد بنفس شرقي مبتكر.

كان جبران منذ صغره مهووسا بانتقاء الكلمات التي تعبر عن الأشياء التي يريدها، فلم تكن الأساليب التعبيرية القديمة قادرة على ترجمة أفكاره وأحاسيسه ترجمة صحيحة، فعكف على صياغة طرق جديدة بألفاظ جديدة ذات إيقاع جديد وشكل جديد[2]، وفي موضع آخر يصرح لماري هاسكل أنه خلق في اللغة العربية "لغة جديدة داخل لغة قديمة كانت قد وصلت حدا بالغا من الكمال، لم أبتدع

[1]- جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران نصوص خارج المجموعة، ص ص93-96.

[2]- ينظر: سمير السالمي، شعرية جبران المستمر بين الشعري والفني، دار توبقال للنشر، المغرب، ط1، 2011م، ص84.

مفردات جديدة بالطبع، بل تعابير جديدة واستعمالات جديدة لعناصر اللغة"[1]، وفي (الأجنحة المتكسرة) يرى أنه كتبها بشكل جديد يشبه إلى حد كبير الشكل الذي استعمله كولريدج وويدزويرت في الأدب الانجليزي، إذ استعمل لغته الخاصة النابعة من ذاته لا لغة العامة أو الأساتذة.

يرى جبران أن الألفاظ هي ملك مشاع بين الناس، ولكن طريقة سبك هذه الألفاظ تختلف من شخص لآخر، وبمقدور المبدع أن يظهر تميزه وتفرده في هذا الجانب فيخلق من المفردات ما لم يستطع غيره من خلقه بجده وإصراره وعدم شعوره بالملل في التنقيح والتعديل، ويُذكر في هذا السياق أن جبران كان إذا راودته خاطرة كتبها في أي شيء وجده، وعندما يعود إلى مكتبه يفتش عنها ليسكبها في قالب لغوي طريف، فيشطب كلمة ويضيف أخرى حتى تستقيم، وقيل أنه وضع لرسالة بعث بها إلى (مي زيادة) خمس مسودات، وهذا إن دلّ على شيء إنما يدل على اهتمامه الكبير بوضع شكل يناسب فكرته، وكأني به جعل الشاعر الجاهلي (زهير بن أبي سلمى) صاحب الحوليات قدوة له في ذلك.

التزم جبران في كتاباته باللغة البسيطة الواضحة التي تغترف معناها من معجم الذاكرة، فكان يتخير الألفاظ –كما أسلفنا الذكر– ويصطفي منها أقربها إلى الفهم وأحلاها رنة في الأذن، ولم يكتف بذلك بل خلق ألفاظا جديدة ذات معان تعبيرية فائقة نابعة من وجدانه، هذا من جهة، ومن جهة أخرى لم يتردد في إخراج بعض الكلمات من حقلها المفهومي الشائع وإضفاء معان جديدة عليها مخالفة تماما للمعاني السابقة التي كانت تحملها، ومن ذلك نذكر على سبيل المثال لا الحصر: كلمة (الله) التي لم تعد في عُرف جبران تعني الخوف والقوة والتعالي والعظمة والأمر والنهي والجبروت، بل هو محبة ودعوة،

[1]– سمير السالمي، شعرية جبران المستمر بين الشعري والفني، ص85.

ويد تواسي المظلومين وتخفف عنهم وتعيد الحقوق إلى أصحابها، هو نور ينير ظلمة الحياة، ومفتاح يفتح أبواب الأسرار للعقول المتعطشة إلى المعرفة اليقينية، هو جمال يتجسد في الوجود، هو عطاء...

وكذلك كلمة (الدين) التي تدل منذ القدم على الطقوس والشعائر والممارسات التي يقوم بها الإنسان ليتقرب من خالقه، صارت عنده حرية،و حاجة، وكشف رباني،و طريق، وعاطفة راقية،و حياة، وكرم... أما كلمة (كاهن) فتغير مدلولها من إنسان يبين الطريق التي يجب أن يسير عليها المؤمن، ويمثل تعاليم الرب وينفذ أوامره، إلى شعور داخلي يسير بالنفس نحو الكمال فلم يعد ير كاهنا لأن الضمير أصبح الكاهن الأعظم[1]، أضف إلى ذلك كلمة (هيكل) التي نقصد بها المعبد أو الكنيسة أو المسجد أي المكان الذي يجمع المتعبدين، صارت في معجمه إنسان طبيعي يتحرك ويمارس حياته بصفة عادية لكنه يسعى إلى الكمال والإتحاد بالذات الإلهية[2].

لم تتقيد ألفاظ جبران بالمعاني الموضوعة لها في المعاجم، بل راحت تكتسي معان جديدة من نص إلى آخر، الأمر الذي أعطاها قدرة كبيرة على التعايش والتكيف مع كل فكرة جديدة، فكلمة (شبح) على سبيل المثال لا الحصر لم تعد ذلك المنظر المرعب المخيف بل صارت رمزا للضمير الحي في مقال (حفار القبور): "ما سبيلي سوى سبيلك، فأنا سائر حيث تسير ورابض حيث تربض"[3]، وأوهاما في

[1]- جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته العربية، ص168.

[2]- ينظر: مها خير بك ناصر، جبران أصالة وحداثة، ص ص 208-209.

[3]- جبران خليل جبران، العواصف، ص07.

مقال (الجبابرة): "أما الأحلام المستحبة والأشباح الجميلة التي كانت تميس منتقلة على مسارح وجداننا فقد تبددت كالضباب"[1].

ولم يقتنع جبران بجعل اللفظة تكتسب معان جديدة إلى جانب معناها الأصلي ، بل غيّر دلالات بعض الكلمات من السلب إلى الإيجاب أو من الإيجاب إلى السلب كما هو الحال في كلمة (الجنون) التي تعني انعدام الطاقة العقلية وفقدان التوازن، أصبحت عنده دعوة إلى التمرد، وطريق للكشف الرباني وإزالة الحجاب، وحرية وانعتاق من القوانين والتقاليد. ولفظة(كافر) التي تدل على الإلحاد والشرك صارت عنده إبداع وثورة وخلق وتمرد.

إن ما سقناه من أمثلة ليس إلا غيضا من فيض، فجبران اهتم بهذا الجانب كثيرا وجعل مهمته الأدبية تنحصر في منح المفردات الرائجة والمعروفة بين كل الناس روحا جديدة تبث فيها الحياة وتكيفها مع الأوضاع، وتحررها من قيود الزمان وتنفض عنها غبار العتاقة والقدم، ولما جنت طريقته ثمارها وأثبتت نجاعتها صارت غاية كل أديب ومطلب كل لغوي.

إن المتصفح لمؤلفات جبران ذات الميول الصوفية يجد أن معجمه اللفظي مستمد من حقلين أساسيين هما: الدين والطبيعة. فالكلمات المنتزعة من الحقل الديني طاغية على أدبه، إذ قلما نجد نصا خال من رمز ديني كالروح، النفس، رب، كاهن، إله، ناموس، جوهر، حب، جمال، محبة، عطاء، المحجوب، الكائن، الهياكل، البخور، الأغنية السماوية، الملأ الأعلى، الوجود، الجوع الروحي...، وفي قصة (رماد الأجيال والنار الخالدة) تتكرر كلمة الروح أربعين مرة في تراكيب متنوعة، وحتى مقال

[1]- المصدر نفسه، ص92.

(الموسيقى) الذي يبدو متصلا بعالم الفن وبعيد كل البعد عن مجال الدين نعثر فيه على ألفاظ ذات رموز دينية كسحر، عجيب، جوهر، تراتيل، روح، صلاة، أناشيد، آلهة، سبّحوا، رسول، جوع، عطش، الله...

أما الألفاظ المأخوذة من الطبيعة فكثيرة جدا ويصعب حصرها إلى درجة أنه يمكننا القول: إن الطبيعة تجسدت في كتاباته بكل مظاهرها وفصولها، وتركت فيه بصمة خاصة جعلته متميزا ومتنوعا كتنوعها، ومن هذه الألفاظ نذكر مثلا: جبال، بحر، أنهار، ينابيع، سواقي، النجوم، المروج، السهول، الأودية، المطر، تراب، رياح، عواصف، ثمر، رياحين، براعم الزهر، الظل، الورق، الشجر، البيادر، الكروم، الليل، الحقول، نهار،...

وحتى عناوين قصصه ومقالاته احتوت على رموز طبيعية كالأجنحة المتكسرة، العاصفة، بحيرة النار، صراخ القبور، بنات البحر، مناحة في الحقل، تحت الشمس، الحيوان الأبكم، أنشودة الزهرة، أيها الليل، الجنية الساحرة، بين ليل وصباح، في ظلام الليل، البنفسجة الطموح، نفسي مثقلة بأثمارها، حفنة من رمال الشاطئ، الأرض، أيتها الأرض، البحر الأعظم، أغنية الليل، البحر، الشحرور، ماذا تقول الساقية؟، الكلب الحكيم، الثعلب، الرمانة، النملات الثلاث، الليل والمجنون، وريقة عشب وورقة خريف، بنت الأسد، دوارة الريح، طائر إيماني، البحار الأخرى، النسر والقُبَّرَة، وميض البرق، اللؤلؤة، على الرمل، الضفادع، التراب الأحمر، البدر الكامل، الفأرة والهر، الرمانات، الحوت والفراشة، الظل، النهر.

عمل جبران على إظهار المضامين الجديدة في حلة جديدة فحافظ على أصل اللغة وغيّر في الأساليب ونوع في مداليل الكلمات بحسب ما يمليه عليه حسه وذوقه الأدبي، ولم يخضع للأصول

والقواعد التي تجعل الأدب مبتذلا متعنتا وجامدا، وهو ما جلب له نقدا لاذعا من أنصار المحافظة على التراث، فهاهو مصطفى صادق الرافعي يخاطبه بسخرية حارة قائلا: "فمتى كنت يا فتى صاحب اللغة، وواضعها، ومنزل أصولها، ومخرج فروعها، وضابط قواعدها، ومطلق شواذها؟ ومن سلّم لك بهذا حتى يسلم لك حق التصرف كما يتصرف المالك في ملكه، وحتى يكون لك من هذا بحق الإيجاد، ومن الإيجاد ما تسميه أنت مذهبك ولغتك؟ إنه لأهون عليك أن تولد ولادة جديدة فيكون لك عمر جديد تبتدئ فيه الأدب على حقه من قوة التحصيل، وتستأنف دراسة اللغة بما يجعلك فيها من أن تلد مذهبا جديدا أو تبدع لغة تسميها لغتك"[1].

إن هذا الكلام لهو دليل واضح على حجم التجديد الذي أحدثه جبران في اللغة مما جعل المحافظين يقفون في وجهه مستنفرين متتبعين كتاباته كلمة كلمة، يفندون بعضها وينتقدون بعضها الآخر بحجة عدم ورودها في المعاجم ككلمة (تحمّم) التي وردت في قصيدة (المواكب) في قوله:

هَلْ تَحَمَّمْتِ بِعِطْرٍ وَتَنَشَّفْتِ بِنُور[2]

وفي قصة يوحنا المجنون في قوله: "والزهور تتمايل كأنها تتحمّم بأشعة الشمس"[3]، ولقيت هذه الكلمة هجوما عنيفا من نقاد الأدب فرد ميخائيل نعيمة في غربال قائلا: "لما جاز لبدوي لا أعرفه وتعرفونه،أن يدخل على لغتكم كلمة (استحم) ولا يجوز لشاعر أعرفه وتعرفونه أن يجعلها (تحمّم) وأنتم

[1]- مصطفى صادق الرافعي، تحت راية القرآن، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، د ط، 1963م، ص13.

[2]- جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته العربية، ص210.

[3]- المصدر نفسه، ص44.

تفهمون مقصده، بل تفهمون (تحمّم) قبل أن تفهموا (استحمّ) وما هي الشريعة السرمدية التي تربط ألسنتكم بلسان أعرابي عاش قبلكم بألوف السنين، ولا تربطها بلسان شاعر معاصر"[1].

ومن الكلمة الجبرانية ننتقل إلى العبارة الجبرانية التي اتسمت بالغرابة والمفاجاة مما جعلها نموذجا يحتذى به، إذ اتخذت قوالبا وأشكالا عديدة، فنراه تارة ينتزعها من الطبيعة كبياض الثلوج وخضرة المروج، واصفرار البيادر، وزمجرة الأودية، وثرثرة الينابيع، فطغى عليها الجانب التصويري وكأنك حين تقرأها أو تسمعها تشاهد لوحة فنية من لوحات الطبيعة لا نصا أدبيا، وتارة يضفي على تراكيبه لمسات الكتاب المقدس، وحينها يعتمد المثل كما في (المجنون) و(السابق) و(التائه)، ويخاطب الناس بلهجة نبوية وكأن الله منحه سلطانا عليهم فيكثر من النداء والتعجب والإستفهام والندبة والتوكيد، ويجمع بين النقيضين كالوعظ والنداء إلى التقريع واللوم والتمرد والثورة إلى السكينة والسلام والهدوء، وبهذه المميزات تمكن من إقناع قارئيه برؤاه وأفكاره.

إن لغة جبران لغة حية تفيض بالحيوية الروحية، انطلقت من الماضي وتفاعلت مع الحاضر وتطلعت إلى مستقبل زاهر دائم، وبذلك جاز لنا أن نقول عنه أنه "ذاك الفارس الذي ينتشل الكلمات من الغدير الذي غرقت فيه، لينسلها كلمة كلمة من نسيجها القديم، ويخيطها كلمة كلمة في نسيجها الجديد"[2].

[1]- ميخائيل نعيمة، الغربال، دار العلم للملايين، بيروت، د ط، 1971م، ص ص411-412.

[2]- وهيب كيروز، عالم جبران الفكري، ص ص143-144.

2-الصورة الفنية :

اهتم النقاد القدامى والمحدثين بمصطلح الصورة اهتماما كبيرا لكونها أحد الأدوات الأساسية التي يستعين بها الأدباء في بناء نصوصهم، والتعبير عن أفكارهم ومشاعرهم وآرائهم في الكون والحياة، فتعددت مفاهيمها إلى درجة الإجماع على صعوبة وضع تعريف جامع مانع لها، "فالوصول لمعنى الصورة ليس باليسير الهين، ولا السهل اللين، ومن قال ذلك فقد احتجبت عنه أسرار اللغة وجمالها المكنون المستتر وروحها المتجددة النامية، وليس لها –كما عند المناطقة- حدود جامعة ولا قيود مانعة"[1]، وقد أرجع النقاد هذه الصعوبة إلى أسباب كثيرة منها: تعدد التراكيب الوصفية وتنوعها من الصورة الأدبية إلى الفنية أو الشعرية أو البيانية أو المجازية أو الخيالية، يضاف إلى ذلك ارتباطها بالإبداع الشعري الذي هو شيء ذاتي يختلف من شاعر إلى آخر، والذي أفشل كل "المساعي التي تحاول تقنينه أو تحديده دوما، لخضوعه لطبيعة متغيرة تنتمي لحدود الفردية والذاتية وحدود الطاقة الإبداعية المعبر عنها بالموهبة"[2].

غير أن هذه الصعوبة لم تمنع النقاد من وضع تعاريف للصورة تتناول جوانب مختلفة من جوانبها، والمتصفح لكتب النقد القديمة والحديثة سينبهر من كثرتها وتشعبها حتى يصعب حصرها، لذا سنقتصر على إيراد القليل منها الذي يخدم الهدف المنشود من هذه الدراسة.

ذهب جمع من الدارسين إلى أن مصطلح الصورة وفد إلى العرب من الغرب، فنفوا استخدام القدماء للتصوير، لكن هذه الاتهامات سرعان ما تزول و تتلاشى أمام الحقائق الثابتة في الشعر القديم،

[1]- علي علي صبح، الصورة الأدبية تأريخ ونقد، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، د ط، د ت، ص5.

[2]- بشرى موسى صالح، الصورة الشعرية في النقد العربي الحديث، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1994م، ص19.

فمن يقرأ الشعر الجاهلي يدرك لا محالة احتفاء الشاعر بفن التصوير الذي تجلى في تقنية الوصف خاصة ، وحين يقف الشاعر على الطلل ويصفه لك كأنه يرسم لوحة تشاهدها بعينيك لا بخيالك ويجسم مناظر ومشاهد طبيعية مكتملة الجوانب، أَوَلَيْس حين ذلك يعرف الصورة ويلم بها إلماما تاما، وهي الحقيقة التي أقرّها (إحسان عباس) لما رأى أن التصوير ليس خاصية جديدة مبتكرة وقال: "ليست الصورة شيئا جديدا، فإن الشعر قائم على الصورة –منذ أن وجد حتى اليوم- ولكن استخدام الصورة يختلف بين شاعر وآخر، كما أن الشعر الحديث يختلف عن الشعر القديم في استخدامه للصورة"[1].

إن أقدم نص عالج الصورة هو للجاحظ حين قوّم الشعر وأشار إلى الخصائص والسمات التي ينبغي أن تتوافر فيه، فيذكر أنه لما سمع أن (أبا عمرو الشيباني) قد استحسن بيتين من الشعر لمعناهما مع سوء تعبيرهما، ردّ عليه قائلا: "المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العربي والعجمي والبدوي والقروي، وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء، وفي صحة الطبع وجودة السبك فإنما الشعر صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير"[2].

لا يعطي الجاحظ في هذا النص أهمية للمعاني التي هي ملك مشاع يشترك فيه كل الناس، أما إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء وصحة الطبع وجودة السبك، هي ما يعوَل عليه برأيه في صناعة الشعر، إلى جانب التصوير الذي يرفع من قيمة الكلام وشأنه، ويمنحه القدرة على إثارة المتلقي وجعله يتفاعل معه.

[1]- إحسان عباس، فن الشعر، دار الثقافة، بيروت، ط3، 1955م، ص230.

[2]- أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان، ج3، ص13.

وبذلك وضع الجاحظ بمقولته السابقة حجر الأساس لمفهوم الصورة وترك لمن يأتي من بعده مهمة بناء وتشييد صرحها، فـ"حاولوا أن يصبوا اهتماماتهم على الصفات الحسية في التصوير الأدبي وأثره في إدراك المعنى وتمثله، وإن اختلفت آرائهم وتفاوتت في درجاتها"[1]، وهاهو قدامة بن جعفر يضع لبنة على هذا الأساس، فيحاول تحديد مفهوم الصورة ضمن حديثه عن تعريف الشعر وأركانه، فيقول: "ومما يوجب تقدمته وتوسيده –قبل ما أريد أن أتكلم فيه– أن المعاني كلها معرضة للشاعر، وله أن يتكلم منها فيما أحب وآثر من غير أن يحظر عليه معنى يروم الكلام فيه، وإذا كانت المعاني للشعر بمنزلة المادة الموضوعة والشعر فيها كالصورة كما يوجد في كل صناعة من أنه لا بد فيها من شيء موضوع يقبل تأثير الصور منها: مثل الخشب للنجارة، والفضة للصياغة، وعلى الشاعر – إذا شرع في أي معنى كان من الرفعة والضعة، والرفث والنزاهة، والبذخ والقناعة، والمدح، وغير ذلك من المعاني الحميدة، أو الذميمة – أن يتوخّى البلوغ من التجويد في ذلك إلى الغاية المطلوبة"[2]، والشعر بحسب قدامة مادة هي المعاني، وصورة هي الصياغة اللفظية، وعلى الشاعر أن يهتم بالصورة وتجويدها لأنها "الوسيلة، أو السبيل لتشكيل المادة وصوغها، شأنها في ذلك شأن غيرها من الصناعات وهي–أيضا– نقل حرفي للمادة الموضوعة، المعنى يحسنها ويظهرها حِلية تؤكد براعة الصانع"[3]، ويزيد قدامة على ذلك بتحديد معيار جودة الشعر الذي أرجعه إلى الشكل أكثر من المعنى لأن "كل ما في الحياة معان شعرية يعرض إليها الشاعر في شعره ما دام قادرا على إخراجها وتصويرها"[4]، لذا ركز على عنصر التصوير وفصّل في مكوناته

[1]– عبد الإله الصائغ، الصورة الفنية معيارا نقديا، دار القائدي، ليبيا، د ط، دت، ص170.

[2]– قدامة بن جعفر، نقد الشعر، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، د ط، د ت، ص ص 65–66.

[3]– بشرى موسى صالح، الصورة الشعرية في النقد العربي الحديث، ص22.

[4]– أحمد عامر، من قضايا التراث العربي النقد والناقد، منشأة المعارف، الاسكندرية، د ط، د ت، ص133.

وجزئياته في قوله: "وأحسن البلاغة الترصيع، والسجع، واتساق البناء، واعتدال الوزن، واشتقاق لفظ من لفظ، وعكس ما نظم من بناء، وتلخيص العبارة بألفاظ مستعارة، وإيرادها موفورة بالتمام"[1].

أما عبد القاهر الجرجاني الذي تمتع بحس نقدي مرهف، فقد أفاظ واسترسل في حديثه عن الصورة في كتابيه (أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز) وعالجها من جوانب مختلفة فربطها بالدوافع النفسية والخصائص الذوقية في قوله: "فالتمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني أو أبرزت هي باختصار في معرضه، ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته كساها أبهة وأكسبها منقبة، ورفع من أقدارها وشب من نارها وضاعف قواها في تحريك النفوس ودعا القلوب إليها واستثار لها أقاصي الأفئدة صبابة وكلفا، وقسر الطباع على أن تعطيها محبة وشغفا"[2]، وهنا في هذا النص أشار الجرجاني إلى أهمية الأثر النفسي في تكوين الصورة وتشكيلها، وفي موضع آخر نظر إليها نظرة متكاملة فلم يفرق بين اللفظ والمعنى بل جعلهما لحمة واحدة وعنصران مكملان لبعضهما البعض وأقنومان لشيء واحد، " واعلم أن قولنا (الصورة) إنما هو تمثيل وقياس لما نعلمه بعقولنا على الذي نراه بأبصارنا، فلمَّا رأينا البينونة بين آحاد الأجناس تكون من جهة الصورة فكان بين إنسان من إنسان، وفرس من فرس بخصوصية تكون في صورة ذاك، وليست العبارة عن ذلك بالصورة شيئاً نحن ابتدأناه فينكره منكر، بل هو مستعمل في كلام العلماء، ويكفيك قول الجاحظ: وإنما الشعر صناعة، وضرب من التصوير"[3].

[1]- علي علي صبح، الصورة الأدبية تأريخ ونقد، ص29.

[2]- عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تحقيق هـ. ريثر، مكتبة المتنبي، القاهرة، ط2، 1979م، ص101.

[3]- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ط3، 1992م، ص 508.

من خلال ما تقدم، نستنتج أن مفهوم الصورة في النقد القديم قام على علاقات التشابه الموجودة بين الشعر والتصوير، والرسم والتخيل، وعلى مختلف الأساليب البلاغية من تشبيه واستعارة وكناية[1]، أما في النقد الحديث فقد تعددت مفاهيم الصورة وتنوعت، إذ يعرفها مصطفى ناصف بقوله: "إنها منهج فوق المنطق لبيان حقيقة الأشياء"[2]، ويرى محمد غنيمي هلال أنه يجب دراسة الصورة " في معانيها الجمالية، وفي صلتها بالخلق الفني والأصالة، ولا يتيسر ذلك إلا إذا نظرنا لاعتبارات التصوير في العمل الأدبي بوصفه وحدة، وإلى موقف الشاعر في تجربته، وفي هذه الحالات تكون طرق التصوير الشعرية وسائل جمال فني مصدره أصالة الكاتب في تجربته وتعمقه في تصويرها، ومظهره في الصور النابعة من داخل العمل الأدبي والمتآزرة معاً على إبراز الفكرة في ثوبها الشعري"[3]، فالصورة يجب أن تنبع من عمق التجربة التي يعيشها الأديب لتضفي جمالا وسحرا على عمله، وتكون عنصرا أساسيا فيه لا وسيلة تزيين يتركها متى يشاء.

ويؤكد (علي علي صبح) على ضرورة عمق الصورة وقوتها لتؤثر في القارئ وتحرك مشاعره وأحاسيسه فيتفاعل معها، ذلك أن " الصورة الأدبية هي التركيب القائم على الإصابة في التنسيق الحي لوسائل التعبير التي ينتقيها وجود الشاعر – أعني خواطره ومشاعره وعواطفه – المطلق من عالم المحسّات ليكشف عن حقيقة المشهد والمعنى في إطار قوي تام محسّ مؤثر على نحو يوقظ الخواطر والمشاعر في الآخرين"[4]، ويفرق في موضع آخر بين الصورة الفنية الأدبية والصور التي يراها في الواقع والطبيعة،

[1]– ينظر: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، د ط، ج1، 1968م، ص206.

[2]– مصطفى ناصف، الصورة الأدبية، دار الأندلس، بيروت، ط3، 1984م، ص8.

[3]– محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، دار نهضة مصر، القاهرة، د ط، د ت، ص57.

[4]– علي علي صبح، الصورة الأدبية تأريخ ونقد، ص149.

باعتبار الصورة الفنية " ليست فكراً مجرداً، لأنها مشدودة إلى العالم الفكري الوجداني من جهة، وإلى عالم المحسّات من جهة أخرى، وهذا هو الفرق في الجوهر بين الصورة التي خرجت من معالم الفن المصبوغ بالمشاعر والخواطر والعواطف، وبين الصورة المحسّة في الطبيعة التي لم يحدد الفن العلاقات بين أجزائها، وتوضيح أشرار العلاقات بينها هو مناط الخيال من التصوير الأدبي"[1].

أما عبد القادر الرباعي فيرى أنها "هيئة تثيرها الكلمات الشعرية بالذهن شريطة أن تكون هذه الهيئة معبرة وموحية في آن"[2]، كما عدّها " ابنة للخيال الشعري الممتاز الذي يتألف – عند الشعراء – من قوى داخلية تفرق العناصر وتنشر المواد ثم تعيد ترتيبها وتركيبها لتصبها في قالب خاص حين تريد خلق فن جديد متحد منسجم، والقيمة الكبرى للصورة الشعرية في أنها تعمل على تنظيم التجربة الإنسانية الشاملة للكشف عن المعنى الأعمق للحياة، والوجود المتمثل في الخير والجمال من حيث المضمون والمبنى بطريقة إيحائية مخصبة"[3].

وعلى غراره يرى (جابر عصفور) "أن الصورة نتاج لفاعلية الخيال، وفاعلية الخيال لا تعني نقل العالم أو نسخه، وإنما تعني إعادة التشكيل، واكتشاف العلاقات الكامنة بين الظواهر والجمع بين العناصر المتضادة أو المتباعدة في وحدة"[4]، وبذلك نجد الصورة عند جابر عصفور وعبد القادر الرباعي ليست محاكاة ونسخ لما يوجد في الواقع أو المدركات السابقة، بل إعادة تشكيل لها بطريقة مميزة وفريدة إلى الدرجة التي تجعل الصورة تؤلف بين المتناقضات والإحساسات فتبدو وحدة متكاملة.

[1]– علي علي صبح، الصورة الأدبية تأريخ ونقد ، ص 154.

[2]– عبد القادر الرباعي، الصورة الفنية في النقد الشعري دراسة في النظرية والتطبيق، دار العلوم للطباعة، الرياض، ط1، 1984م، ص85.

[3]– عبد القادر الرباعي، الصورة الفنية في شعر أبي تمام، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط2، 1999م، ص 15.

[4]– جابر عصفور، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، د ط، 1974م، ص213.

هذه الخاصية التي تحدثا عنها، هي ما نصادفه في أعمال جبران إذ الخيال عنده يفصله عن العالم الحسي ويحمله إلى أمكنة هيولية مفترضة متجذرة في عمق التاريخ، أو متطلعة نحو أزمنة آتية، وهو عنده وحدة لا تتجزأ والصورة ليست نسخا نفسيا لما هو في الخارج "ولكن نوعا من التمثيل الفوري الموصوف على نحو ملائم من خلال اللغة الشعرية، ظاهرة تخيلية ليس لها مع إدراك الأشياء إلا علائق غير مباشرة، وهي بالأحرى نتائج النشاط التخيلي للاوعي، تتجلى للوعي بطريقة هي إلى حد ما مفاجئة، كرؤيا، أو كهذيان لا علاقة له بالخصيصة المرضية، أي من غير أن تكون على الإطلاق منتسبة للائحة العيادية للمرضى، وخصيصتها النفسية تلك التي للتمثيل التخييلي، لا علاقة لها مطلقا بشبه واقع الهذيان. وبتعبير آخر لا تحتل أبدا مكان الواقع. فالذات تميزها باستمرار عن الواقع الحسي لأنها تدركها كصورة داخلية"[1].

هذا النشاط اللاواعي للخيال هو الذي ينتج الصورة عند جبران التي تجسد الرؤيا لديه، مختارة عبور الذات العميقة لتخرج كقناعة فكرية متميزة عن الواقع الحسي إلى درجة الغرابة، أوليس هو القائل "إنما العمل الفني ضباب صيغ في صور"[2]، فكما الضباب يحجب الرؤية ويلفه الغموض ،كذلك الأعمال الأدبية لا يجب أن تكون تقريرية مباشرة بل إيحائية تعتمد لغة الصور التي تضفي عليها جمالا وغموضا شاعريين.

تمتع جبران بخيال قوي ألبس أدبه حلة فنية حادت باللغة عن طبيعتها الساكنة المتحجرة وجعلتها حيوية تشع بالحياة، إذ أضفى على الجماد لمسات الحركة فصارت حية كالكواكب التي جعلها

[1]- محمد بنيس، الشعر العربي الحديث بنياته وإبدالاته (الرومانسية العربية)، دار توبقال، د ط، 1990م، ص ص145-146.

[2]- ريموند قبعين، النزعة الروحية في أدب جبران ونعيمة، ص91.

عشاقا يسهرون والأرض تلتهب حنانا، وللدهور أوتار، وللنسيم أصابع خفية تلامس الوجوه[1]، وللسماء عيون ناظرة إلينا[2]، وأشجار اللوز والتفاح قد اكتست بحلل بيضاء معطرة فبانت بين المنازل كأنها حوريات بملابس ناصعة قد بعثت بهن الطبيعة عرائس وزوجات لأبناء الشعر والخيال[3]، والزهرة نجم هبط من الخيمة الزرقاء على بساط أخضر[4]، وللربيع أقدام وللثلوج أنفاس[5]، وأزاهر الأودية أطفال يلدها انعطاف الشمس وشغف الطبيعة، وأطفال البشر أزاهر يلدها الحب والحنان[6]، والغيمة والحقل عاشقان والمطر بينهما رسول مسعف ينهمل فيبرد غليل هذا ويشفي علة تلك[7]، والريح بين المساكين مؤبن وقف بين القبور، والطريق منحنية بين الحقول انحناء خطوط الكف كأنها في المدى دروب القدر[8]، والنسيم يمر بين الأغصان متنهدا والأغصان تتعانق، ويرى المدينة الجالسة كالثكلى تحت أطباق الثلوج، ويقف على باب القصر وينظر نحوها نظرة إرميا إلى أورشليم[9]، ويبصر الفقير يبتسم ابتسامة الزهرة الذابلة بُعيد المطر، "وتُطبق الوردة أوراقها وترتعش قليلا ثم تموت وعلى وجهها ابتسامة علوية –ابتسامة من حققت الحياة أمانيه– ابتسامة النصر والتغلب –ابتسامة الله–"[10].

كما أن الخيال المتقد الذي تميز به جبران جعله يقرن كل فكرة بصورة قد تكون واقعية أو خيالية يضفي عليها مغزى معنوي يجردها من ماديتها، ويظهرها كلوحة فنية رائعة تسر الناظرين، فمثلا

[1]– ينظر: جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته العربية، ص111.
[2]– ينظر: المصدر نفسه، ص112.
[3]– ينظر: المصدر نفسه، ص103.
[4]– ينظر: المصدر نفسه، ص196.
[5]– ينظر: المصدر نفسه، ص143-144.
[6]– ينظر: المصدر نفسه، ص137.
[7]– ينظر: المصدر نفسه، ص195.
[8]– ينظر: المصدر نفسه، ص44.
[9]– ينظر: المصدر نفسه ، ص156.
[10]– المصدر نفسه، ص285.

عندما تغرب الشمس يحس بدُنُو الأجل وانطفاء شعلة الروح، وحين يحل الليل بظلامه وهوله وسكونه يشتاق إلى النور الذي ينبعث من نفسه ككواكب متلألئة ينثرها الوجد عند المساء، وكقمر يسعى في الفضاء بين الغيوم والنجوم.

وما يلفت الانتباه في أدب جبران كثرة الصور المنتزعة من حقل الطبيعة إلى درجة أنه لكل مشهد من مشاهدها صدى في قلبه وقصة حزينة في نفسه، يظهرها بطريقة لاشعورية في تشابيهه واستعاراته ففي قوله مثلا: "سمعت كلماتي وشعرت بأنها صادرة من أعماق نفس تتألم معها، فاهتزت على مضجعها مثل القضبان العارية أمام رياح الشتاء، ووضعت يديها على وجهها كأنها تريد أن تستر ذاتها من أمام الذكرى الهائلة بحلاوتها، المرة بجمالها"[1]، فهذا التشبيه يعكس نفسية جبران والألم الذي اعتصره وشعر به عندما كان عند(مرتا البانية)،فقاسمها آلامها لأنه هو الآخر وقع فريسة للفقر والحرمان وأصابه الشلل والعجز أمام المحن والمصائب التي مر بها، فوقف أمام الحياة مثل القضبان العارية أمام رياح الشتاء.

وفي قوله: "الأشجار العارية من الأوراق كأنها جماعة من الفقراء تركوا خرجا بين أظفار البرد القارس والرياح الشديدة"[2]، لوحة فنية استمدت عناصرها من الطبيعة لتعبر عن حقيقة إنسان اليوم، وكأنه يود أن يقول: إنك لا ترى في فصل الشتاء أشجارا عارية من الأوراق بل أناسا عرّاهم الجوع والبرد فلا تميزهم من الشجر، وفي قوله: أظفار البرد استعارة لطيفة تعكس شدة حزن هؤلاء الناس وانقطاع

[1]- جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته العربية ، ص41.

[2]- المصدر نفسه ، ص43.

أملهم بالحياة لأن البرد القارس سيحل عليهم كوحش كاسر يخطف أرواحهم ويحصدها كما يحصد المنجل العشب.

يضاف إلى ذلك أن صور جبران لا تنفصل عن ذاته، وهي تعبر عن حالته النفسية ورؤاه الفكرية التي يؤمن بها ويدافع عنها، ويظهر ذلك جليا في قوله: "صرخ الرئيس بهم قائلا: اقبضوا على هذا المجرم الشقي وانزعوا منه الكتاب وجُرّوه إلى حجرة مظلمة في الدير، فمن يجدِّف على مختاري الله لا يُغفر له ههنا ولا في الأبدية. فهجم الرهبان هجوم الكواسر على الفريسة وقادوه مكتوفا إلى حجرة ضيقة وأقفلوا عليه بعد أن نهكوا جسده بخشونة أكفهم ورفس أرجلهم"[1]، يدل هذا النص دلالة إيحائية عما يؤمن به، فهو لطالما كره الرهبان وثار ودعا إلى التمرد عليهم لأنهم في نظره مجرمون لا يمثلون تعاليم المسيح التي تدعو إلى العدالة والمحبة، و إنما يتخذون الدين حجة ليحققوا مطامعهم ويرضوا أهواءهم، فيعيشوا عالة على الفلاحين يسلبونهم عرقهم وقوتهم ويتركونهم للجوع يفعل فيهم فعلته الشنيعة.

وفي قوله: "كان رشيد بك يقترب مني عندما يشعر بحاجة إلى الطعام أما نفسانا فتظلان بعيدتين كخادمين ذليلين"[2] دلالة على بشاعة عالمه وما يسوده من قوانين ظالمة، وحكام متعسفين يحكمون الناس بأهوائهم ومطامعهم، ويسنون لهم سننا تخدمهم كعدم إعطاء المرأة حقها في اختيار شريك حياتها، فيزوجها الأب بمن يرضاه لماله وشرفه غير مبال بما تشعر به ابنته التي يسجنها تحت قيد الزواج، ويقص جناحيها حتى لا تحلق مع حرية الحب –أسمى العواطف الإنسانية وأرقاها–، لذا كثيرا ما أخذ جبران على عاتقه مهمة تحرير المرأة من قيود العادات والتقاليد، ودعا إلى كسر طوق الزواج

[1]– جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته العربية، ص46.

[2]– المصدر نفسه ، ص59.

التقليدي الذي حكم عليه بالبطلان لأنه لا يدين بدين الحب مع أن الحب أساس الحياة يطهر النفس و يقربها من خالقها .

ومن التشبيه ننتقل إلى الاستعارة التي وردت بكثرة في أدبه حتى استحال علينا حصرها وتحليلها كلها، لذا سنقتصر على إيراد بعض الأمثلة كما فعلنا مع التشبيه، ومنها قوله: "تجرعت مسامعي هذه الكلمات القليلة من فم الصبي وامتصتها عواطفي مبتدعة صورا وأشباحا غريبة محزنة لأني عرفت بلحظة أن مرتا المسكينة التي سمعت حكايتها من ذلك القروي هي الآن في بيروت مريضة. تلك الصبية التي كانت بالأمس مستأمنة بين أشجار الأودية هي اليوم في المدينة تعاني مضض الفقر والأوجاع، تلك اليتيمة التي صرفت شبيبتها على أكف الطبيعة ترعى البقر في الحقول الجميلة قد انحدرت مع جرف نهر المدينة الفاسدة وصارت فريسة بين أظفار التعاسة والشقاء"[1]، عبر هذا النص عن كوامن جبران النفسية، فجاء بألفاظ خرجت عن معانيها الحقيقية لتنتج دلالات جديدة وتولد انفعالات عميقة في القارئ، إذ أسند الفعل (تجرع) إلى السمع و(امتص) إلى العواطف ليبين مدى تأثره بكلام الصبي، كما جعل للتعاسة أظفار وحش ليدلل على واقعه المعيشي المر الذي انعكس على ذاته وفكره وانساب في إبداعاته.

تنتج الاستعارة كما هائلا من الدلالات والإيحاءات عندما تتفاعل مع السياق العام للنص الأدبي، وتشكل مدخلا يسمح لنا بالولوج إلى أعماق الأديب واكتشاف عالمه الداخلي الدفين، وفي قوله: "وقفت ناظرا، ومع نظراتي تنسكب حلاوة الشفقة ومرارة الحزن على جوانب تلك القبور الجديدة

[1]- جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته العربية ، ص40.

—قبر فتى دافع بحياته عن شرف عذراء ضعيفة وأنقذها من بين أظفار ذئب كاسر، فقطعوا عنقه جزاء شجاعته، وقد أغمدت تلك الصبية سيفه بتراب قبره ليبقى هناك رمزا يتكلم أمام وجه الشمس عن مصير الرجولة في دولة الحيف والغباوة"[1]، تجسيد لعنصرين مجردين في صورة محسوسة، فانزاحت الكلمة عن دلالتها المعجمية الأولى لتخلق معنى أعظم يعبر عن هول المصيبة وعمق أثرها في الفؤاد.

وسار جبران على نفس النهج في قوله: "وقبر صبية لامس الحب نفسها قبل أن تغتصب المطامع جسدها، فرُجمت لأن قلبها أبى إلا أن يكون أمينا حتى الموت. وقد وضع حبيبها باقة من زهور الحقل فوق جسدها الهامد لتتكلم بذبولها وفناءها البطيء عن مصير النفوس التي يقدسها الحب بين قوم أعمتهم المادة وأخرسهم الجهل"[2]، ففي هاتين الاستعارتين دلالة قوية على أهمية الحب والمحبة المقترنة بالتضحية، المفضلة الموت على الحياة بعيدا عن المحبوب، الطامعة بالإتحاد به في عالم اللانهاية حيث لا ظلم ولا قتل ولا رياء ولا مصالح مادية بل حرية وعدل وحياة أبدية جميلة مبنية على البساطة تفترش العشب ليلا، وتلتحف السماء نهارا وتتوسد القش الناعم وتسمع مسامرة غدير الوادي[3]، وفي هذه الصورة يظهر الزهد عن الدنيا في أعلى قمته.

لم تقتصر صور جبران على البيان بل شملت البديع أيضا الذي برع في استخدامه وبخاصة الطباق باعتباره وسيلة توحد المتناقضات، وتدلل على إيمانه بفكرة جوهر الوجود الواحد، وأن هذا التناقض البادي في الكون ما هو إلى قشور خارجية، ومن أمثلة ذلك قوله في قصيدة (سُكُوتي إنشاد):

[1]- جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته العربية ، ص66.

[2]- المصدر نفسه ، ص67.

[3]- جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته العربية ، ص144.

سُكُوتِي إِنْشَادٌ وَجُوعِي تُخْمَةٌ وَفِي عَطَشِي مَاءٌ وَفِي صَحْوَتِي سُكْرٌ

وَفِي لَوْعَتِي عُرْسٌ وَفِي غُرْبَتِي لِقًا وَفِي بَاطِنِي كَشْفٌ وَفِي مَظْهَرِي سِتْرٌ[1]

يجمع جبران في هذين البيتين بين الأضداد ويمزج بينها فالسكوت إنشاد، والجوع تخمة والعطش ماء والصحو سكر، والغربة لقاء والباطن كشف...

يتضح لنا مما سبق أن الصورة عند جبران تنبع من أعماقه ويعيشها بأدق تفاصيلها، لذا اتخذها وسيلة للتعبير عما يختلج في نفسه من مشاعر وأحاسيس وأحلام، و جعلها أداة يكشف بها المخفي ويعالج بها أمراض العصر بأسلوب لَبق جميل.

3-الرمز:

غالبا ما تتصل الصورة بالرمز حسب بعض الدراسات العربية المعاصرة، وإن مَلَكَ جبران ناصية البيان فقد برع أيضا في استعمال الرمز الذي يتيح للقارئ "أن يتأمل شيئا آخر وراء النص"[2]، وشَكّل عنده وسيلة أساسية للتعبير عن أفكاره الفلسفية والدينية بطريقة غير مباشرة، وقد أرجع (غسان خالد) نزوعه إلى توظيف الرموز "إلى مزاجه الفني، لأن اغتراب الفنان عن المجاري العادية للحياة يدفعه إلى تلمس الأشياء من بعيد تمردا على هذه الأشياء ونشدانا للمجهول كما يعود أيضا إلى جذوره المشرقية حيث كان للغة الرموز مكانة لدى الكثيرين من المفكرين ذوي الميول الصوفية الإشراقية. فابن سينا في أقصوصته (سلامان وإبسال)، وشهاب الدين السهروردي في (حكمة الإشراق) وقصة (الغربة الغربية)،

[1]- ينظر: المصدر نفسه ، ص350.

[2]- مصطفى السعدي، البنيات الأسلوبية في لغة الشعر العربي الحديث، منشأة المعارف، مصر، دط، 1987م، ص71.

وغيرهما من المنتمين إلى بعض الاتجاهات الباطنية، استعملوا الرموز الكلامية للدلالة على أفكار إصلاحية أو غيبية ماورائية. والفكر الشرقي الديني يميل على العموم إلى هذا النوع من التعابير الإيحائية"[1]، وجبران المعتز بجذوره الشرقية المفتخر بها لم يتنصل من تأثيرها، بل انطبعت هذه الخلفية الذهنية في فكره وخياله وتجلت في أدبه حين اعتمد على أسلوب الإيحاء.

تنبع رموز جبران من أعماق تجربته الأدبية ومن المخزون الثقافي القابع في لاوعيه، فتنسكب في أدبه مضفية عليه طابعا شعريا ينقل المشاعر المصاحبة للتجربة ويحدد أبعادها النفسية، وتتميز رموزه بفرادة دلالتها فالنار الخالدة مثلا: تعني عنده الحب الأزلي الأبدي الذي لا يموت بموت الأجساد بل يبقى ما دامت الروح محلقة في الفضاء، والكآبة ليست حالة نفسية مزعجة بل هي نزوع ذاته إلى التفوق وبلوغ الكمال، والجنون ليس عاهة عقلية بل هو تحرر من القيود وكشف للمحجوب المستتر، والجسم العاري يدل عنده على الخير الحقيقي الفطري، والناي يعبر عن تعلقه بأصله وشوقه للإنعتاق من قيود العالم المادي، والغاب مكان يتخلص فيه من ضوضاء المدينة وتعقيداتها، وإرم ذات العماد ترمز إلى العالم الخفي عالم المعرفة الحقيقية، الرحلة الشاقة التي يقوم بها المتصوفون للفناء في الله.

غير أن الملاحظ في أدبه هو احتفاءه بالرموز الطبيعية التي احتلت الصدارة، وبخاصة تلك التي تمثل قوى الطبيعة الجبارة التي تتمظهر فيها قدرة الرب كالشمس والبحر والريح والأرض والضباب والرعد والعاصفة و...

[1]- غستان خالد، جبران الفيلسوف شخصية العبقري في منافد خلاصها النقد الاجتماعي و البنية الفردوسية جدلية الإنسان و الألوهة ، ص ص262-263.

فالشمس أُحيطت منذ القدم بهالة أسطورية، إذ هي في الديانات الشرقية منبع الحياة وطاردة الظلام، وآلهة النور والعدالة، تبدد عتمة النفوس فتفضح الشر المكنون فيها، وعند جبران هي النور الروحي الذي حرره من قيوده وضعفه وهداه إلى طريق النُبوة، هي طاقة الخصب والنمو وحتى الله ينمو على هدى نورها "أنا أمسُك وأنت غدي. أنا عروق لك في ظلمات الأرض وأنت أزاهر لي في أنوار السماوات ونحن ننمو معا أمام وجه الشمس"[1] هكذا خاطب المجنون ربه.

كما أنها مصدر الحقيقة والمعرفة الإشراقية والسبيل إلى الذات الإلهية "إن ذاتكم الإلهية كالشمس لا تعرف طرق المناجذ ولا تعبأ بأوكار الأفاعي"[2]، هي رمز القوة ومن ينظر إليها بأجفان جامدة فقد ظفر بنورها وعدلها، ومن خافها ووقف في أشعتها مُوَليها ظهره فهو شرير صاحب نفس مظلمة راضية بالعيش في الظلال كي لا يكشف النقاب عن شرها وسواد قلبها، إنها الحقيقة فلا شيء باطل تحتها.

أما الريح فهي انعكاس لما في الحياة من تناقضات وتقلبات، تجيء من الجنوب "حارة كالمحبة، ومن الشمال تأتينا باردة كالموت ومن المشرق لطيفة كملامس الأرواح، ومن المغرب تتدفقين شديدة كالبغضاء"[3]، وهي تقود الإنسان إلى الخلاص والعدم فإلى "أين تتسارعين بأرواحنا وتنهداتنا وأنفاسنا؟ إلى أين تحملين رسوم ابتساما تنا؟ وماذا تفعلين بشعلات قلوبنا المتطايرة؟ هل تذهبين بها إلى ما وراء الشفق، إلى ما وراء هذه الحياة؟ أم تجرينها فريسة إلى المغاور البعيدة والكهوف المخيفة وهناك تقذفينها

[1]- جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته المعربة عن الانجليزية، ص10.

[2]- المصدر نفسه، ص106.

[3]- جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته العربية، ص189.

يمينا وشمالا حتى تضمحل وتختفي"[1]، إنها أقنومي العدل والظلم في آن واحد "تتصاعدين مع الروابي وتنخفضين مع الأودية وتنبسطين مع السهول والمروج. ففي تصاعدك عزم، وفي انخفاضك رقة، وفي انبساطك رشاقة، فكأنك مليك رؤوف... وتمرين غاضبة في الصحاري فتدوسين القوافل بقساوة ثم تلحدينها بلحف الرمال... تثورين ظلما في البحار فتحركين ساكن أعماقها، حتى إذا أزبدت حنقا عليك فتحت فاها لجة ولقمتها من السفن والأرواح لقما مرة"[2]، هي ذات الإنسان الخفية الحائمة فوق الجبال من جهة ومن جهة أخرى هي الجبار الذي بيده مصير كل البشر.

ثم يأتي بعدها البحر الذي يرمز إلى الخلود واللانهاية والرغبة في كشف أسرار الكون، إنه الأم العظمى التي توفر السلام والطمأنينة لأولادها حين تضمهم إلى صدرها فها "قد وصل الجدول إلى البحر، وأُتيح للأم العظيمة أن تضم ابنها إلى صدرها مرة ثانية"[3]، هو الذي يحدث الضباب الذي يتحول إلى قطرات ثم إلى مطر فجدول يصب فيه، فتتكرر عوداته الأبدية وحينها يتجسد مبدأ التقمص.

أما الضباب فهو بداية الأشياء يولد من البحر وتذوبه الشمس ليولد ثانية في اليوم التالي وهكذا دواليك إلى ما لا نهاية، و"الحياة وجميع الكائنات إنما تتصور أولا في الضباب وليس في البلور. ومن يدري أن البلور لم يكن ضبابا مجمدا"[4].

---

[1]- المصدر نفسه، ص190.

[2]- جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته العربية ، ص189-190.

[3]- جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته المعربة عن الانجليزية، ص145.

[4]- المصدر نفسه، ص143.

وفي قصيدته (الشحرور) نراه يرمز بهذا الطائر إلى الحرية الكبرى التي يتوق إليها والطهارة التي يفتش عنها، والحياة المثلى التي يحلم بها فيقول:

أَيُهَا الشحْرُورُ غَرد فَالغِنَى سِر الوُجُود

لَيْتَني مِثْلك حُر مِنْ سُجُون وَقُيُود

لَيْتَني مِثلك رُوحا فِي فَضَا الوَادِي أَطِير

أَشْرَبُ النُورَ مُدَاما فِي كُؤُوس مِنْ أَثِير

لَيْتَني مِثلَكَ طُهْرًا وَاقْتِناعا وَرِضى

مُعْرِضا عَمَا سَيَأْتِي غَافِلا عَمَا مَضَى

...

أَيُهَا الشحْرُورُ غَنِ وَاصْرِف الأَشْجَان عَنِي

إِن فِي صَوْتِك صَوْتًا نَافِخًا فِي أُذُنِ أُذُني[1]

كما لم يغفل جبران رمزية الأرقام فتردد في كتاباته العدد سبعة الذي يشير به إلى دورات الحياة التي يجب أن يمر بها الإنسان ليحقق السعادة الكلية فيقول: "سبع مرات قد وُلدت، وسبع مرات قد مت... وهاأنا أحيا ثانية"[2]، أما العدد ثلاثة فقد رمز به إلى الكمال لأنه رمز الثالوث المقدس.

[1]- جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته العربية، ص ص359-360.

[2]- جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته المعربة عن الانجليزية، ص355.

إن ما سقناه من رموز ليس سوى أمثلة قليلة، ولو حاولنا رصدها كلها لما كفتنا هذه الصفحات ولما حققنا الهدف المنشود من هذه الدراسة، وذلك راجع إلى أن الرموز التي وظفها جبران كثيرة جداحتى صار بإمكاننا القول: إن كل كلمة في كتاباته هي رمز بحد ذاتها كالسفينة والشراع واللبن والعسل والخمر والشجرة والجبل والنهر والهيكل واللوتس وأدونيس وعشتروت والمسيح ويسوع...

4-الإيقاع:

تمتع جبران بأذن حساسة مرهفة تلتقط الأصوات وإيقاعات الكون، وتختزنها لتنسكب في أدبه انسكابا مميزا مملوءا بالتلوين والتنغيم، فهو منذ صغره أحب الموسيقى الكنائسية، وسيطر جو اللحن والجرس على وجدانه، لذا نظر إلى الإيقاع نظرة مختلفة متفردة، إذ هو ليس عنده سجع أو جناس أو بحر أو قافية أو روي بل تعبير عن تجربة وجدانية تنساب أنغامها "ألحانا ذات دلالة، وتصقل موهبته النغمية وتوقظ لديه التلوين الإيقاعي الذي يستخدمه، وتخلق فيه الإحساس بجرس الكلمة ونبر اللفظ، وتطبع أذنه بطابع الانتقاء والاختيار"[1]، ويشرح نظرته هذه إلى ماري هاسكل فيقول: "على الشعراء أن ينصتوا إلى إيقاع البحر، وهو الإيقاع الذي يتصف به سفر أيوب وسائر الأسفار الرائعة من كتاب العهد القديم. وإنك لتسمعين هذا الإيقاع في الطريقة المزدوجة لقول شيء ما. فهناك ما يقال ثم يقال لتوكيده ثانية بطريقة مختلفة قليلا وهذا يشابه أمواج البحر. فأنت تعرفين كيف تأتي الموجة الكبيرة ملتفة صاخبة وإذ تمتد تجوف حصى الشاطئ وسط هدير متكسر ثم يرجع بعض الحصى إلى مكانه، لكن بصخب أقل، ونوع من التيار الأصغر. ثم لا تلبث أن تقوم موجة ثانية أصغر من الأولى وتفعل فعلها

[1]- عباس عجلان، عناصر الإبداع الفني في شعر الأعشى، مؤسسة شباب الجامعة، مصر، د ط، 1985م، ص64.

—بصخب– ثم تلي ذلك فترة سكون. وعلى الأثر تقوم موجة كبيرة تهدر ملتفة من جديد وتليها شقيقتها أصغر منها —وهكذا دواليك– وحري أن يستوحي المرء هذه الموسيقى الطبيعية"[1] بدلا من البحث عنها في قواعد وقوانين تقيدها.

وكثيرا ما يظن الناس أن الإيقاع خاصية تتعلق بالشعر فقط مُجملينه في الوزن والقافية والروي، لكن الحقيقة غير ذلك "إذ الإيقاع في حقيقة أمره إيقاعات مختلفة حيث نلفيه يتسلط من الوجهة الفلسفية الخالصة، على كل مظاهر الحياة بما فيها سيرة الكون القائمة على هذه الرتابة المتجددة حركتها كالليل والنهار، والصبح والمساء، وتعاقب الفصول، وتعاور النور والظلام، بل إننا نجد وظائف أعضاء الجسم تقوم أساسا على حركة إيقاعية"[2]، واللغة العربية إيقاعية بفطرتها لما تمتاز به من أصوات ذات نظام موسيقي يظهر في مختلف استخداماتها[3]، وقد تنبه جبران إلى هذه الخاصية ومن يقرأ نثره يجده غنيا بالإيقاع الناجم عن:

- **الجمل المتساوية والمتقاربة طولا**: كقوله:

"الحياة امرأة تستحم بدموع عشاقها وتتعطر بدماء قتلاها.
الحياة امرأة ترتدي الأيام البيضاء المبطنة بالليالي السوداء.
الحياة امرأة ترضى بالقلب البشري خليلا و تأباه حليلا .
الحياة امرأة عاهرة ولكنها جميلة ومن ير عهرها يكره جمالها[4]."

[1]– جميل جبر، جبران في عصره وآثاره الأدبية والفنية، ص136.
[2]– عبد الملك مرتاض، الأدب الجزائري القديم دراسة في الجذور، دار هومة، الجزائر، د ط، 2005 م، ص200.
[3]– ينظر: عبد الملك مرتاض، بنية الخطاب الشعري– دراسة تشريحية لقصيدة أشجان يمانية–، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1991م، ص133.
[4]– جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته العربية، ص228.

هذه العبارات يتراوح عدد كلماتها بين ثمانية وعشرة، ففي العبارات الثلاث الأولى يثبت العدد ثمانية ليزيد في الأخيرة بكلمتين ولكنها مجزأة ضمن إيقاعات صغيرة، إذ بدأها بثلاث كلمات (الحياة امرأة عاهرة) ثم استدركها بكلمتين (ولكنها جميلة)، ثم استخدم الشرط وجوابه (ومن ير عهرها يكره جمالها) وقوله أيضا: "أيها العدل الخفي الكامن وراء هذه الصور المخفية، أنت أنت السامع عويل نفسي المودعة ونداء قلبي المتهامل، منك وحدك أطلب وإليك أتضرع، فارحمني وارع بيمناك ولدي، وتسلم بيسراك روحي!"[1].

نلاحظ أنه بدأ مناجاته بثلاث كلمات ثم تصاعدت بإيقاع موسيقي مؤثر، لتنتهي بثلاث كلمات حين لم تستطع تغيير الواقع، وقوله:

"يا ليل العشاق والشعراء والمنشدين .

يا ليل الأشباح والأرواح والأخيلة.

يا ليل الشوق والصبابة والتذكار[2]."

هنا يفتتح كلامه بالنداء ويكرره كأنه يناجي روحا تفهمه وتتفاعل معه، فيلتزم بعدد الكلمات الخمسة من السطر الأول إلى السطر الثالث.

- **الجمل المتشابهة من حيث التركيب**: مثال ذلك قوله:

"فلم أستيقظ صباحا إلا ورأيتها متكئة على مساند سريري .

ولم أحاول عملا إلا ساعدتني على تحقيقه.

[1]- المصدر نفسه، ص43.

[2]- المصدر نفسه، ص224.

ولم أجلس إلى مائدة إلا جلست قبالتي تحدثني وتبادلني الآراء والأفكار .

وما جاء مساء إلا اقتربت مني قائلة: قم بنا نسير بين التلول والمنحدرات[1]" .

تعمّد جبران هنا استخدام أسلوب الحصر الذي افتتحه بأداة النفي والجزم (لم) في الجمل الثلاث الأولى، وغيّرها في الرابعة ليدل على تغير في عواطفه وانتقاله إلى وضعية جديدة أحدثت اضطرابا في الإيقاع.

- **الجمل المتوافقة والمتقاربة من حيث المعنى**: نموذج ذلك قوله:

"فإن أحببنا فحبنا ليس منا وليس لنا.

وإن سررنا فسرورنا ليس فينا بل في الحياة نفسها.

وإن تألمنا فالألم ليس بكلومنا بل بأحشاء الطبيعة بأسرها."[2]

فهذه العبارات بالإضافة إلى تشابهها من حيث التركيب، فإنها تدل على معنى واحد هو أننا لسنا أحرار فيما نفعله ونحسه بل نحن خاضعين لمشيئة الله سبحانه وتعالى لأننا جزء من ملكوته.

- **الجمل المختلفة والمتضادة من حيث المعنى**: ومن أمثلة ذلك قوله:

"لبنانكم كذب يحتجب وراء نقاب من الذكاء المستعار، ورياء يختبئ في رداء من التقليد والتصنع، أما لبناني فحقيقة بسيطة عارية إذا نظرت في حوض ماء ما رأت غير وجهها الهادئ وملامحها المنبسطة.

لبنانكم شيخ قابض على لحيته، قاطب ما بين عينيه ولا يفكر إلا في ذاته، أما لبناني ففتى ينتصب كالبرج، ويبتسم كالصباح، ويشعر بسواه شعوره بنفسه"[1].

[1]- جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته العربية، ص296.

[2]- المصدر نفسه، ص301.

"نحن أبناء الكآبة وأنتم أبناء المسرات.

أنتم لا تعرفوننا أما نحن فنعرفكم.

أنتم لا تسمعون صراخنا لأن ضجيج الأيام يملأ آذانكم، أما نحن فنسمع أغانيكم

لأن همس الليالي فتح مسامعنا.

نحن نراكم لأنكم واقفون في النور المظلم، أما أنتم فلا ترونا لأننا جالسون في الظلمة المنيرة"[2].

في هذين النموذجين يجمع بين المتناقضين بتركيب نوعا ما متقارب، مما يساهم في خلق جرس موسيقي هادئ تأنس له الأذن وترتاح له النفس.

- **التكرار**:تعد ظاهرة التكرار الصوتي لبعض الكلمات والعبارات من الوسائل التي تثري الإيقاع الداخلي، واستغلّ جبران هذه الخاصية في أدبه التي أكسبته قوة معان ونغمة موسيقية رائعة، وسنورد أمثلة عن تكرار الكلمات والجمل.

❖ **تكرار الكلمات**: من أمثلة ذلك قوله:

"طوبى للرصينين بالروح.

طوبى لمن لا تقيدهم مقتنياتهم لأنهم سيكونون أحرارا.

طوبى لمن يتذكرون آلامهم ، وفي آلامهم يرقبون أفراحهم .

[1]- جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته العربية ، ص306.

[2]- المصدر نفسه، ص230.

طوبى للجياع للحق والجمال لأن مجاعتهم ستحمل لهم خبزا وعطشهم ماء عذبا.

طوبى للرؤوفين لأنهم سيعتزون بلطفهم ورأفتهم.

طوبى لأنقياء القلب لأنهم سيكونون واحدا مع الله.

طوبى للرحماء لأن الرحمة ستكون في نصيبهم.

طوبى لصانعي السلام لأن أرواحهم ستقطن فوق المعركة وسيحولون حقل الخزاف إلى جنة غناء.

طوبى للمطاردين لأن أقدامهم ستكون سريعة وسيكونون مجنحين"[1].

يلح جبران في هذا النص على تكرار كلمة (طوبى) ذات المدلول الديني العظيم، فأعادها في بداية كل عبارة تراود وعيه، لتُكسب النص انسجاما وترابطا وتؤثر في القارئ دلاليا وصوتيا.

وقوله:"وأغرب ما لقيت من أنواع العبوديات وأشكالها العبودية العمياء، وهي التي توثق حاضر الناس بماضي آبائهم وتنيخ نفوسهم أمام تقاليد جدودهم وتجعلهم أجسادا جديدة لأرواح عتيقة وقبورا مكلسة لعظام بالية.

والعبودية الخرساء، وهي التي تعلق أيام الرجل بأذيال الزوجة التي يمقتها، وتلصق جسد المرأة بمضجع الزوج التي تكرهه.

والعبودية الصماء وهي التي تُكْره الأفراد على اتباع مشارب محيطهم...

[1]- جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته المعربة عن الانجليزية، ص231.

والعبودية العرجاء وهي التي تضع رقاب الأشداء تحت سيطرة المحتالين...

والعبودية الشمطاء وهي التي تهبط بأرواح الأطفال من الفضاء المتسع إلى منازل الشقاء...

والعبودية الرقطاء وهي التي تبتاع الأشياء بغير أثمانها...

والعبودية العرجاء وهي التي تحرك بالخوف ألسنة الضعفاء...

والعبودية الحدباء وهي التي تقود قوما بشرائع قوم آخرين.

والعبودية الجرباء وهي التي تُتَوج أبناء الملوك ملوكا.

والعبودية السوداء وهي التي تسم بالعار أبناء المجرمين الأبرياء.

والعبودية للعبودية نفسها هي قوة الاستمرار"[1].

العبودية سلوك مرفوض منذ القدم بمختلف أنواعه، وترديدها تأكيد على ذلك وترسيخ لها في ذهن القارئ بإيقاع هادئ مخدر أشبه بإيقاع أسفار كتاب العهد القديم.

❖ **تكرار الجمل**: كقوله:

"أنا غريب في هذا العالم.

أنا غريب وفي الغربة وحدة قاسية ووحشة موجعة.

[1]- جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته العربية، ص219.

أنا غريب عن أهلي وخلاني، فإذا ما لقيت واحدا منهم أقول في ذاتي: من هذا؟

أنا غريب عن نفسي، فإذا ما سمعت لساني متكلما تستغرب أذني صوتي...

أنا غريب عن جسدي، ولما وقفت أمام المرآة أرى في وجهي ما لا تشعر به نفسي..."[1]

إن تكرار عبارة (أنا غريب) وتصديرها بالضمير (أنا) يوحي بنغمة صوتية رخيمة، وصوت شجي بليغ الوضوح، هذا بالإضافة إلى كلمة غريب التي جاءت على وزن فعيل، وما ينطوي عليه من جرس رقيق مُستحب.

وقوله: " أنت حر أمام شمس النهار.

وأنت حر أمام قمر الليل وكواكبه.

وأنت حر حيث لا شمس ولا قمر ولا كواكب.

بل أنت حر عندما تغمض عينيك عن الكيان كله"[2].

ولا يقتصر الإيقاع عند جبران على النثر فقط بل وجدناه في الشعر أيضا لكن بأسلوب جديد، إذ لم يلتزم بالوزن الواحد والقافية الواحدة والروي الواحد، وإنما نوع فيها وكانت الأوزان عنده تتغير بتغير الموضوع الذي يعبر عنه، وتجلى ذلك واضحا في قصيدة المواكب التي نظمها على بحرين: الأول البسيط الذي يستوعب كلاما كثيرا خص به الشيخ، والثاني مجزوء الرمل الذي يحتمل معان قليلة جعله

[1]- المصدر نفسه، ص285.

[2]- جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته المعربة عن الانجليزية، ص169.

للشاب، ليعبر عن اتجاهين مختلفين للحياة، كما نوع في حروف الرويّ (الراء، العين، اللام، الميم، النون، الباء، الحاء، التاء، الفاء، السين، الهمزة، الدال، الكاف، ونوع في حركاتها من الضمة إلى السكون).

وعلى نفس المنوال نظم قصيدته (أغنية الليل) لكن ليس على بحرين بل ببحر واحد هو الرمل، لكنه جعل الشطر الأول كامل التفعيلات بينما الشطر الثاني أتى به مجزوءا مع تمام المعنى، فيقول:

تسكن الليْل وَفِي ثَوْبِ السُكُون تَخْتَبِئ الأَحْلام

وَسَعَى البَدْرُ وَلِلْبَدْرِ عُيُون تَرْصُدُ الأَيَام

فَتَعالي يا ابْنَة الحَقْلِ نَزُور كَرْمَة العُشَاق

عَلَنَا نُطْفي بِذَيَاك العَصِير حُرْقَة الأَشْوَاق[1]

[1]- جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته العربية، ص358.

خاتمة

كثيرا ما يصعب على الباحثين وضع خواتيم لبحوثهم، لاعتقادهم أنه لا نهاية للسؤال، وكل جواب مهما بدا مقنعا يتحول مرة ثانية إلى سؤال أصعب وأعقد، فما من جواب يريح الباحث ويطمئنه، ولكن منهجية البحوث تفرض على الباحث كتابة صفحات يخط فيها أهم النتائج التي توصل إليها ، لذلك سنعرض أهمها على شكل نقاط هي:

- تَشَرب جبران نزعاته الصوفية من البيئة الطبيعية لبشري والوضع العائلي المضطرب والمتناقض بوجود أب قاس فظ حاد الطباع قامع للحريات، وأم حكيمة عطوفة مؤمنة بقدرات أولادها فتطلق لهم العنان، وتفضل الهجرة بهم مغامرة بكل ما لديها علّها تحظى بحياة أفضل من التي يحيونها، فتخوض عباب البحر متجهة إلى أمريكا، وهناك يحتك جبران بالجو الثقافي السائد هناك فيرتشفه جرعة جرعة، وينكب على القراءة والمطالعة ويتشبث بالجذور الدينية الروحية التي أخذها من مسقط رأسه، والتي ما برحت تنير دربه وفكره، ونظرته إلى الحياة التي شابها قلق وتوتر واضطراب قبل أن تصل إلى مرحلة الهدوء الروحي، وتأتي أُكلها كتابا زاخرا بالميول الصوفية هو كتاب (النبي).
- لم يشعر جبران بالراحة في أي مكان كان يحل فيه، وظلت روحه غريبة تحبذ الهجرة الدائمة وترفض الرضوخ للواقع كما هو، وتتوق إلى الفردوس المفقود (الغاب، أو المدينة المحجوبة– إرم ذات العماد–).

- تمتع جبران بحس مرهف وقلب رقيق ومحبة قوية شاملة، فلم يسكت عن الظلم الذي كان يحل بوطنه وأبناء جلدته والإنسان عامة، وراح يحارب كل مظاهر التعسف والإقطاع بقلمه فاضحا وساخة الحكام ورجال الدين وجشع نفوسهم.
- لم يؤمن جبران بالمعرفة العقلية العلمية، وإنما آمن بالمعرفة الحدسية التي تنكشف له من خلال التأمل في ذاته والبحث في أسرار الكون والوجود واكتشاف ما وراء الوجود بدافع من قلقه الميتافيزيقي.
- مال جبران إلى العزلة والوحدة وبنى لنفسه صومعة تَنَسك فيها لأعماله الفنية، رافضا الزواج بحجة أنه يلهيه عن هدفه الأسمى، وعن الرسالة التي أعده الله لتأديتها والتي لفظ أجزاء منها.
- لم ينظر جبران إلى الموت على أنه النهاية، بل هو في رأيه بداية لحياة جديدة لذا كثيرا ما تغنى بجماله.
- لم يدع جبران إلى قهر الجسد كما هو معروف عند الصوفيين لأنه في نظره ملازم للروح ويساعدها على الوصول إلى عالم المثل، وأمانة يجب أن نحافظ عليها حتى تليق بالمعرفة الإلهية التي ستحل فيها.
- لم يدع جبران إلى اعتزال الناس للصلاة وعبادة الله وإنما دعاهم إلى العيش في الحياة بكل تفاصيلها، لأنه بهذه الطريقة يعرف الإنسان ذاته ويعرف ربه، وتتبين له حقارة الدنيا فيتركها ويبحث عن الخلاص.

- آمن جبران بوحدانية الله ونادى بوحدة الأديان لأن الجوهر واحد ما دامت نابعة من ذات إلهية واحدة، وهذه الاختلافات التي نراها ما هي إلا قشور وأصداف.
- لم يهتم جبران بالمادة بل بالروح وما يكتنفها من أسرار.
- يدعو جبران الناس إلى البساطة والفطرة التي خُلقنا عليها حتى ننعم بالعيش الهنيء، والابتعاد عن القوانين التي سنها البشر، والتي عقّدت الحياة وجعلتها غامضة وقاسية، وخلقت الطبقية بينما كلنا خلقنا من طينة واحدة.
- آمن جبران بالتقمص وبعوداته المتكررة حتى تتطهر الروح من أدرانها وترتقي وتسمو، فتصير مهيأة للاتحاد بالله.
- رأى جبران أن اللغة بقواعدها ليست قادرة على احتواء المعرفة الحدسية التي في قلبه ونقلها نقلا واضحا إلى العالم، فجدد في ألفاظها وتراكيبها وصورها وإيقاعها ورموزها، وأوجد بذلك لنفسه أسلوبا جديدا يطفح بالروحانية والعاطفة، ينبع من عمق تجاربه الوجدانية، يحس القارئ بصدقه ويتفاعل معه حتى يصير جزءا مما يقرأه وعنصرا فاعلا فيه، أُطلق على طريقته هذه أسلوب جبران أو المدرسة الأدبية الجبرانية الجديدة.

إن ما قلناه لا يشكل إلا قطرة ماء في جدول، وزبد بحر يظهر ويختفي، وآراء قد يوافق عليها القارئ وقد يعارضها ويفندها، فهي ليست بقرآن منزل وإنما ثمرة جهد عقل بشري يخطئ ويصيب، كما أنها مقدمة قلقه لقراءات لاحقة تنتظر ممن يستهويه فكر جبران أن يحمل المعول ويباشر عملية التنقيب في هذا الأدب الذي أخفى أكثر مما أظهر، ورغم كثرة الدراسات حوله إلا أنه ما زال محتفظا بأسراره

ومعينه لم ينضب بعد، والدليل على ذلك إقرار كثير من البحوث بعجزها في الوصول إلى ما كان يود قلم جبران قوله عبر لغته الإيحائية ودرره العلاماتية.

ملحق 01: بعض المصطلحات الصوفية الواردة في أدب جبران(*) :

1_ الألوهية: هي الذات العليا المتمظهرة في الوجود، والتي نخضع لها ونتوجه بالعبادة إليها.

2- النور الإلهي: هو الضياء، خلقه الله ليهدي الناس إلى طريقه.

3- الشوق: شعور يجتاح الإنسان ويجعله راغبا في لقاء الله، فيطلب الموت.

4- المحبة: إحساس يجعل الإنسان يدافع عن أخيه ويغار عليه.

5- الروح الكلية: الله.

6- المعرفة: تمكين العبد من معرفة حقائق الوجود.

7- الفقر: قلة في ماديات الحياة، ومن رضي به صار أغنى الخلق بالله.

8- الحرية الكبرى: عدم المبالاة بما يوجد حوله لأنه غارق في الذات الإلهية.

9- الحقيقة الأزلية: الوجود المطلق.

10- الذات المعنوية: عين قائمة في قلب الإنسان متصفة بجميع صفات الألوهية، ولكنها بعيدة عن الإدراك والعلم بها، ولا يدركها إلا المفضلون.

11- الرب: هو العلي عن كل ما سواه.

12- الغربة الروحية: هي حنين نفس مشتاقة للقاء ربها، فتود أن تتحرر من سجنها (جسدها).

13- العين الثالثة: هي العين التي تكشف المحجوب وترى المستور، إنها عين القلب أو الحدس.

14- العطاء: هو أن يقدم الإنسان لأخيه ما يحتاجه خفية، ومن دون أن يسأله.

15- الصمت: هو التزام السكوت ليتعود الفكر على التأمل ويصل إلى ذاته.

16- الأم الروحية: منقذ يرشد غيره إلى طريق الصواب، ويرعاه كما ترعى الأم طفلها.

17- الألم: مشاعر تعتصر فؤاد الإنسان وتطهره ليفنى في الله.

18- الكمال: الترفع عن الدنايا.

19- النيرفانا: كلمة سنسكريتية تعني حالة متعالية تصل إليها الروح.

20- الجمال: كل ما يثير الإعجاب ويلفت الإنتباه، هو الحكمة والفضيلة.

21- الرؤيا: إلهام من الله.

22- السكينة: هدوء الروح واطمئنانها.

23- المجاعة الروحية: تعطش الروح إلى المعرفة الإلهية.

(*)ملاحظة: تم شرح هذه المصطلحات بالاستناد إلى السياق التي وردت فيه،مع الإعتماد على كتاب قاموس مصطلحات الصوفية .

ملحق 02: مؤلفات جبران التي أظهر فيها نوازعه الصوفية:

المؤَلف	الميل الصوفي
– رمل وزبد	– وحدة الوجود
– دمعة وابتسامة	– الحلول
– الأجنحة المتكسرة	– الحب الصوفي
– النبي	– الحب الصوفي، الجمال، العطاء
– السابق	– الجمال، التقمص
– المواكب	– وحدة الأديان، الحب الصوفي،التقمص
– العواصف	– جمال الموت، التقمص، الشوق والحنين
– عرائس المروج (رماد الأجيال والنار الخالدة)	– التقمص
– البدائع والطرائف:	
القشور واللباب	– الاستكشاف الباطن
نفسي مثقلة بأثمارها	– العطاء
إرم ذات العماد	– سلامة المعرفة القلبية، وحدة الأديان،
– يسوع بن الإنسان	الحلول،التقمص .

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

أولا :المصادر

1. أبو بكر الكلاباذي، التعرف لمذهب أهل التصوف، دار الكتب العلمية، بيروت، د ط، 2001 م.
2. ابن تيمية، الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، 1407هـ-1987م.
3. جبران خليل جبران، رسائل جبران، دار تلانتيقيت، الجزائر، د ط، د ت.
4. جبران خليل جبران، الأرواح المتمردة، منشورات المكتبة العلمية الجديدة، بيروت، لبنان، د ط، د ت.
5. جبران خليل جبران، العواصف، المكتبة العالمية الجديدة، بيروت، لبنان، د ط، د ت.
6. جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته المعربة عن الانجليزية، تعريب الأرشمندريت أنطونيوس بشير، دار صادر، بيروت، 1964م.
7. جبران خليل جبران، مختارات ودراسات، جمع سهيل بديع بشروئي، تقديم اصطفان فيلد، دار المشرق، بيروت، 1970م.
8. جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران نصوص خارج المجموعة، جمع وتقديم أنطوان القوال، دار الجيل، بيروت، ط1، 1994م.
9. جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته العربية، تقديم ومراجعة وترتيب ميخائيل نعيمة، دار صادر، بيروت، ط1، 2002م.
10. ابن الجوزي، تلبيس إبليس، تحقيق حسن شلبي، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت، 2005م.
11. الزمخشري، أساس البلاغة، دار بيروت للطباعة، بيروت، د ط، 1984م.
12. السراج الطوسي، اللمع في التصوف، تحقيق، كامل مصطفى الهنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2001م.
13. أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، د ط، ج1، 1968م.

14. أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، المجمع العلمي العربي الإسلامي، بيروت، ط.3، 1969م، ج.3.
15. ابن الفارض، ديوان ابن الفارض، شرح هيثم هلال، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط1، 2003م.
16. أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري، الرسالة القشيرية في علم التصوف، هوامش: زكريا الأنصاري، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.
17. عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تحقيق هـ. ريثر، مكتبة المتنبي، القاهرة، ط2، 1979م.
18. عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ط3، 1992م.
19. قدامة بن جعفر، نقد الشعر، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، د ط، د ت.
20. كمال الدين أبي الفضل جعفر بن تغلب الأدفوي المصري، الموفى بمعرفة التصوف والصوفي، حققه محمد عيسى صالحية، مكتبة دار العروبة، الكويت، ط1، 1408هـ-1988م.
21. محيي الدين بن عربي، الفتوحات المكية، دار صادر، بيروت، ج2، د ت، د ط.
22. ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط1، 1410هـ-1990م.
23. ميخائيل نعيمة، في الغربال الجديد، مؤسسة نوفل، بيروت، ط3، 1983م.
24. ميخائيل نعيمة، جبران خليل جبران حياته- موته- أدبه- فنه، مؤسسة نوفل، بيروت، لبنان، ط9، 1981م.
25. أبو نعيم الأصفهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط4، 1405هـ.

ثانيا : المراجع العربية

26. إبراهيم تركي، فلسفة الموت عند الصوفية، دار الوفاء، الإسكندرية، ط1، 2003م.
27. إحسان إلهي ظهير، التصوف المنشأ والمصادر، إدارة ترجمان السنة،باكستان، د ط،د ت.
28. إحسان عباس، فن الشعر، دار الثقافة، بيروت، ط3، 1955م.
29. أحمد العلاوي، المنح القدوسية، المطبعة العلاوية، مستغانم، ط2، 1998م.
30. أحمد عامر، من قضايا التراث العربي النقد والناقد، منشأةالمعارف،الاسكندرية،د ط،دت.

31. أحمد عبد الغفور عطار، الديانات والعقائد في مختلف العصور، مطبعة مكة المكرمة،د ط، 1981م، ج1.
32. أسعد السحمراني، التصوف منشؤه ومصطلحاته، دار النفائس، بيروت، ط1، 1987م.
33. عبد الإله الصائغ، الصورة الفنية معيارا نقديا، دار القائدي، ليبيا، د ط، دت.
34. أمين يوسف عودة، تأويل الشعر وفلسفته عند الصوفية، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2008م.
35. أنيس المقدسي، الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط6، 1977م.
36. بشرى موسى صالح، الصورة الشعرية في النقد العربي الحديث، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1994م.
37. بولس طوق، شخصية جبران في أبعادها التكوينية والحياتية المكونات الأولية، دار نوبيليس، بيروت، د ط، 2000م.
38. بولس طوق، شخصية جبران في أبعادها التكوينية والحياتية تحولات المربع، دار نوبيليس، بيروت، ط1، 2000م.
39. توفيق صايغ، أضواء جديدة على جبران، الدار الشرقية، 1966م.
40. ثريا عبد الفتاح ملحس، القيم الروحية في الشعر العربي قديمه وحديثه، دار الكتاب اللبناني، بيروت، د ط، د ت.
41. جابر عصفور، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، د ط، 1974م.
42. جميل جبر، جبران في عصره وآثاره الأدبية والفنية، مؤسسة نوفل، بيروت، ط1، 1983م.
43. حبيب مسعود، جبران حيا وميتا، دار الريحاني، بيروت، لبنان، د ط، 1986م.
44. حسين علي حمد، قاموس المذاهب والأديان، دار الجيل، بيروت، ط1، 1419هـ-1998م.
45. عبد الحكيم حسان، التصوف في الشعر العربي الإسلامي-نشأته وتطوره حتى آخر القرن الثالث الهجري، تقديم وتعليق عقبة زيدان، دار العراب ودار نور، سوريا، د ط، 2010م.
46. عبد الحليم محمود، أبحاث في التصوف، دار الكتاب اللبناني، لبنان، ط1، 1979م.
47. خالد بلقاسم، الكتابة والتصوف عند ابن عربي، دار توبقال للنشر، المغرب، ط1، 2004م.

48. عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة العلامة ابن خلدون، دار الفكر، 2010م.
49. رفيق العجم، موسوعة مصطلحات التصوف الإسلامي، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط1، 1999م.
50. ريموند قبعين، النزعة الروحية في أدب جبران ونعيمة، دار الفكر اللبناني، بيروت،د ط،د ت.
51. زكي مبارك، التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، ج1، د ط، د ت.
52. سامي الكيالي، الأدب العربي المعاصر في سورية 1850-1950، دار المعارف مصر، د ط، 1959م.
53. سفيان زدادقة، الحقيقة والسراب قراءة في البعد الصوفي عند أدونيس مرجعا وممارسة، الدار العربية للعلوم ناشرون، لبنان، ط1، 1329هـ-2008م.
54. سلمى الحفار الكزبري وسهيل بشروئي، الشعلة الزرقاء- رسائل جبران خليل جبران إلى مي زيادة، مؤسسة نوفل، بيروت، لبنان، ط2، 1984م.
55. سميح عاطف الزين، الصوفية في نظر الإسلام، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، ط4، 1993م.
56. سمير السالمي، شعرية جبران المستمر بين الشعري والفني، دار توبقال للنشر، المغرب، ط1، 2011م.
57. شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الثاني، دار المعارف، مصر، ط2، د ت.
58. صديق بن حسن الفتوحي، أبجد العلوم، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط1، 1423هـ-2002م.
59. صهيب الرومي، التصوف الإسلامي، بيسان للنشر والتوزيع، بروت، لبنان، ط1، 2007م.
60. طنسي زكا، بين نعيمة وجبران، مكتبة المعارف، بيروت، د ط، د ت.
61. عباس عجلان، عناصر الإبداع الفني في شعر الأعشى، مؤسسة شباب الجامعة، مصر، د ط، 1985م.
62. علي حسن الجابري، دروس في الفكر الفلسفي الإسلامي (علم الكلام والفلسفة والتصوف)، دار الفرقد، دمشق، ط1، 2010م.
63. علي علي صبح، الصورة الأدبية تأريخ ونقد، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، د ط، دت.
64. غازي براكس، جبران خليل جبران في دراسة تحليلية تركيبية لأدبه ورسمه وشخصيته، دار الكتاب اللبناني، بيروت، د ط، 1981م.

65. غسّان خالد، جبران الفيلسوف شخصية العبقري في منافذ خلاصها النقد الاجتماعي والبنية الفردوسية جدلية الإنسان والألوهة، مؤسسة نوفل، بيروت، ط2، 1983م.
66. عبد الفتاح أحمد فؤاد، فلاسفة الإسلام والصوفية وموقف أهل السنة منهم، دار الوفاء، ط1، 2002م.
67. فصل سالم العيسى، النزعة الإنسانية في شعر الرابطة القلمية، دار اليازوري العلمية، الأردن، ط6، 2006م.
68. عبد القادر الرباعي، الصورة الفنية في النقد الشعري دراسة في النظرية والتطبيق، دار العلوم للطباعة، الرياض، ط1، 1984م.
69. عبد القادر الرباعي، الصورة الفنية في شعر أبي تمام، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط2، 1999م.
70. عبد القادر فيدوح، الرؤيا والتأويل، دار الوصال، وهران، ط1، 1994م.
71. قاسم الغالي، تاريخ التصوف الإسلامي، ترجمة صادق نشأة، مكتبة النهضة المصرية، د ط، 1970م.
72. كامل مصطفى الشيبي، صفحات مكثفة من تاريخ التصوف الإسلامي، دار المناهل، بيروت، لبنان، ط1، 1997م.
73. كمال اليازجي، تاريخ الفلسفة الإسلامية، ترجمة ماجد فخري، الدار المتحدة للنشر، بيروت، د ط، د ت.
74. عبد الكريم الخطيب، التصوف والمتصوفة في مواجهة الإسلام، دار الفكر العربي، ط1، 1980م.
75. عبد المجيد الشرفي، الفكر الإسلامي في الرد على النصارى إلى نهاية القرن الرابع/ العاشر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، دط، 1986م.
76. محمد بنعمارة، الأثر الصوفي في الشعر العربي المعاصر، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1422هـ-2001م.
77. محمد بنيس، الشعر العربي الحديث بنياته وإبدالاته (الرومانسية العربية)، دار توبقال، د ط، 1990م.
78. محمد جلال شرف، دراسات في التصوف الإسلامي، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، د ط، 1984م.

79. محمد عبد الله الشرقاوي، الصوفية والعقل، دار الجيل، بيروت، د ط، 1995م.
80. محمد عبد المنعم الخفاجي، الأدب في التراث الصوفي، مكتبة عذيب، القاهرة، د ط، د ت.
81. محمد علي كندي، في لغة القصيدة الصوفية، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2010م.
82. محمد مصطفى حلمي، الحياة الروحية في الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط2، د ت.
83. محمد مفتاح، دينامية النص، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط2، 1990م.
84. محمد يوسف نجم، القصة في الأدب العربي الحديث 1870-1914، دار الثقافة، بيروت، لبنان، د ط، د ت.
85. مصطفى السعدي، البنيات الأسلوبية في لغة الشعر العربي الحديث، منشأة المعارف، مصر، دط، 1987م.
86. مصطفى حلمي، ابن تيمية والتصوف، دار العودة، الاسكندرية، د ط، د ت.
87. مصطفى حلمي، الإسلام والأديان دراسة مقارنة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1424هـ-2004م.
88. مصطفى سويف، الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة، دار المعارف، القاهرة، د ط، د ت.
89. مصطفى صادق الرافعي، تحت راية القرآن، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، د ط، 1963م.
90. مصطفى ناصف، الصورة الأدبية، دار الأندلس، بيروت، ط3، 1984م.
91. عبد الملك مرتاض، الأدب الجزائري القديم دراسة في الجذور، دار هومة، الجزائر، د ط، 2005م.
92. عبد الملك مرتاض، بنية الخطاب الشعري- دراسة تشريحية لقصيدة أشجان يمانية-، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1991م.
93. عبد المنعم الحفني، معجم المصطلحات الصوفية، دار السيرة، بيروت، ط1، 1980م.
94. مها خير بك ناصر، جبران أصالة وحداثة، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس، لبنان، د ط، 2002م.
95. ميخائيل نعيمة، الغربال، دار العلم للملايين، بيروت، د ط، 1971م.
96. ناجي حسين جودت، المعرفة الصوفية، دار الجيل، بيروت، ط1، 1992م.

97. نادرة جميل سراج، دراسات في شعر المهجر (شعراء الرابطة القلمية)، دار المعارف، مصر، د ط، 1964م.
98. نبيل راغب، موسوعة النظريات الأدبية، الشركة المصرية العالمية للنشر، القاهرة، ط1، 2003م.
99. نذير العظمة، جبران خليل جبران في ضوء المؤثرات الأجنبية دراسة مقارنة، دار طلاس، الجزائر، ط1، 1987م.
100. نور الهدى الكتاني، الأدب الصوفي في المغرب والأندلس في عهد الموحدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2008م.
101. واصف ابو الشباب، القديم والجديد في الشعر العربي الحديث، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، د ط، 1988م.
102. وديع أمين ديب، الشعر العربي في المهجر الأمريكي، دار الريحاني، بيروت، د.ط، 1955م.
103. وهيب كيروز، عالم جبران الفكري، دار بشاريا، بيروت، د ط، 1984م، المجلد الأول.
104. محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، دار نهضة مصر، القاهرة، د ط، د ت.
105. عبد الرحمن الوكيل، هذه هي الصوفية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط4، 1984م.
106. ميجان الرويلي–سعد البازغي، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط4، 2005م.

ثالثا : المراجع المترجمة إلى العربية

107. جان شوفلي، التصوف والمتصوفة، ترجمة عبد القادر قنيني، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ط1، 1999م.
108. جان لوسيرف، النزعات الصوفية عند جبران خليل جبران، تعريب شعبان بركات، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، د ط، د ت.
109. جورج أنطونيوس، يقظة العرب(تاريخ حركة العرب القومية)، ترجمة ناصر الدين الأسد وإحسان عباس، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1962م.
110. رينولد نيكلسون، الصوفية في الإسلام، ترجمة نور الدين شريبة، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، 2002م.

111. رينيه ويلك-أوستن وارين، نظرية الأدب، ترجمة محيي الدين صبحي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط2، 1987م.
112. فلاديمير لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية الحديث، ترجمة عفيفة البستاني، دار التقدم، موسكو، د ط، 1971م.

رابعا : المراجع الأجنبية

113. Iliada Mircea, Encyclopedia of religion, Mac Millan Publishing co, vol 2, 1987.
114. Great books if the western world, The introduction, Chicago: Encyclopedia Inc, 1990, vol.1, ch.29(God).
115. James William, The varieties of religions experience, New york= double day company Inc, 1978.
116. Dan Joseph, Jewish Mysticism and Jewish Ethics, Jason aronson Inc, 1996.

خامسا : الدوريات

117. سعيد مكروم، الرؤيا الصوفية للعالم والحياة الإنسانية في النبي لجبران خليل جبران، مجلة حوليات التراث، الجزائر، العدد 02، 2004م.

فهرس المحتويات

الموضوعات	الصفحة
مقدمة ----------	1
مدخل ----------	8
التصوف الظاهرة والمفهوم----------	8
1- اشتقاق مصطلح التصوف وتعريفه----------	9
أ- اشتقاق المصطلح----------	9
ب- التعريف الاصطلاحي ----------	20
2- نشأة التصوف----------	25
3- أنواع التصوف----------	29
4- خصائص التصوف أو التجربة الصوفية----------	31
5- التصوف والأدب----------	34
الفصل الأول: الأصول الاجتماعية والمعرفية فكر الصوفي في أدب جبران-----	44
- الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية للبنان زمن جبران----	45
البيئة الطبيعية لمسقط رأسه (بشري) ----------	52
المحيط العائلي لجبران ----------	60
الاستعداد الذاتي ----------	74
التكوين الثقافي ----------	80
أ- الكتاب المقدس ----------	81
ب- الفكر الصوفي الإسلامي ----------	83
ت- الثقافة الشرقية ----------	88
1- الثقافة الغربية ----------	89
الفصل الثاني: مظاهر النزعة الصوفية في أدب جبران ----------	101
1- التقمص ----------	103
2- الحلولية ----------	112

3- وحدة الأديان ----------	118
4- الحب والمحبة ----------	122
5- الجمال ----------	136
الفصل الثالث: خصائص أسلوب أدب جبران الصوفي ----------	143
اللغة ----------	144
الصورة ----------	155
الرمز ----------	169
الإيقاع ----------	175
الخاتمة ----------	186
الملاحق:	190
1- ملحق 01: بعض المصطلحات الصوفية الواردة في أدب جبران --	191
2- ملحق 02: مؤلفات جبران التي أظهر فيها نوازعه الصوفية -----	193
قائمة المصادر والمراجع ----------	195
الفهرس ----------	206